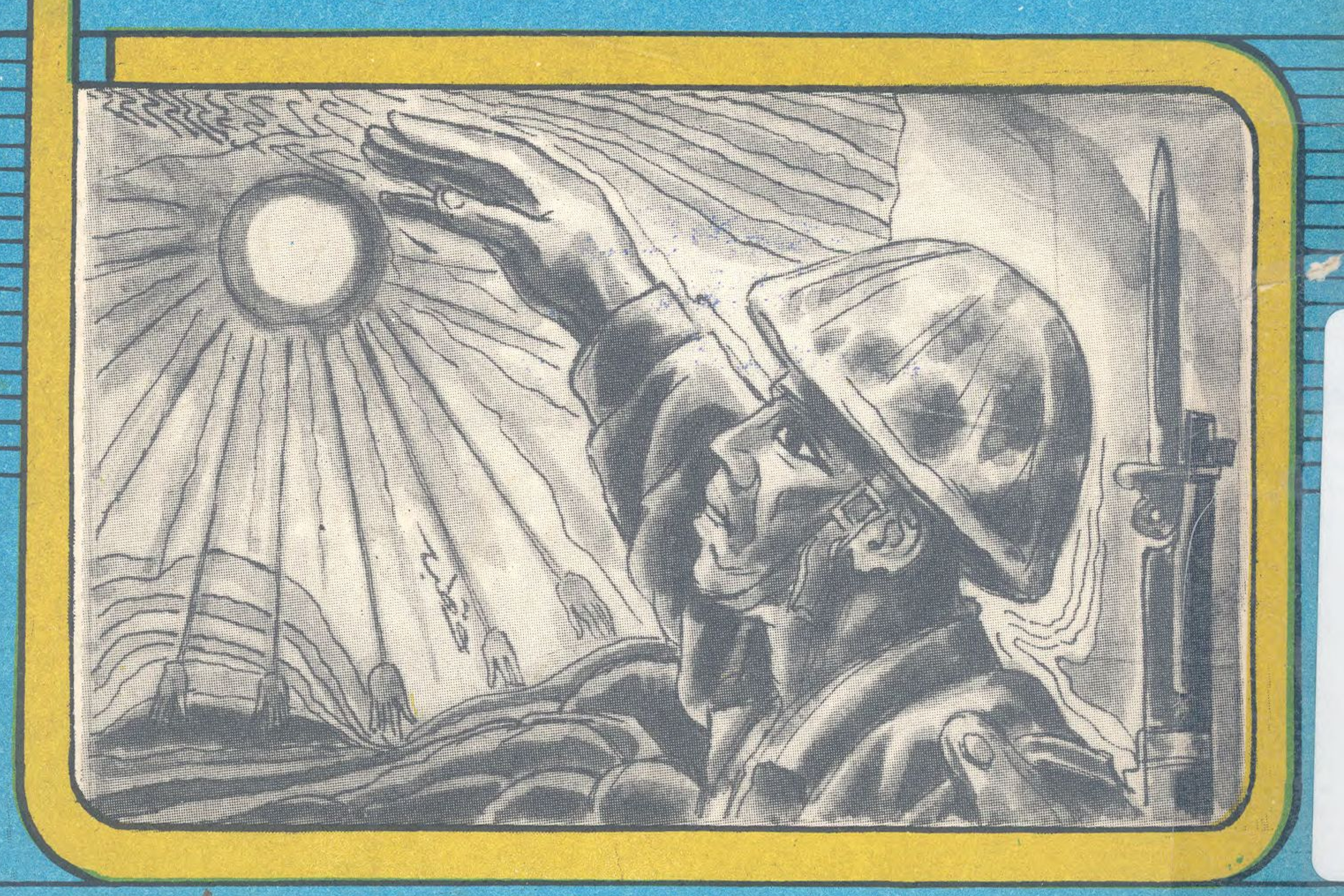
أدب أكتوبر

نقش على برديّة العبور

(شهادة من زمن الحرب والشعر)

أحمد الحوتى



الهيئة المصرية العامة للكتاب

اهداءات ٢٠٠٣

أسرة أ.د/رمزي ذكي

القاهرة

أدب أكتوبر

العدد (٩)

نقش على بردية العبور

(شهادة من زمن الحرب والشعر)

أحمد الحوتى



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨٨

الاخراج الفنى والغلاف : محمد قطب

هـذه قطرات من فيض حب مصر ..

هذه نماذج من ابداع ابنائنا ضباط وجنود القوات المسلحة الذين عاشوا الحرب واقعا حقيقيا ، ونسجوها كلمات تفيض واقعية وتزخر احساسا ليؤكدوا أن النصر العظيم لا ينتج سوى أدب عظيم ..

كلمة المشير / محمد عبد الحليم أبو غزالة

الشاعر أحمد الحوتى : مواليد منية عياش المحلة الكبرى ١٩٤٥ م جند بالقوات المسلحة فى عـام ١٩٦٨ بعد تخرجه من كليـة الزراعـة جامعـة عين شمس . وقضى فى جبهـة القتـال بالقطاع الجنوبى بالسويس المدة من ١٩٦٩ حتى حرب أكتوبـر ١٩٧٣ حيث شـارك فى معـركة العبور ضمن قوات الجيش الثـالث الميـدانى وقضى بالضفة الشرقية لقناة السويس مع قوات « بـدر » الفترة من ٧ أكتوبر ١٩٧٣ حتى أول فبراير ١٩٧٤ م ، ونال عن قصـائد هذا الديوان الجائزة الأولى من وزارة الثقافة فى المسابقة التى نظمتها لشعر المعركة بعد انتهاء الحرب مباشرة .

الى كل قطرة دم طاهرة
تخضبت بهـا سـيناء
الى كل الذين عشقوا الحريـة والموت معـا
الى :
محمد خليفة واسـماعيل كمون وفتحى عبد العزيز وسـيد زهو وفوزى عجمى ومسعد وحمـامه وزكريا نقيطة وعبده رزق ..

وغيرهم

اليهم جميعا .. تواصلا مع نضالهم الشريف وذكراهم الغاليـة الباقيـة

عـلامة ..

ونقشـا ..

على بردية العبور .

احمـد

دراما التحول العظيم ...

من حولى تشابكت كل الأبعاد والرؤى ، تداخلت كل العناصر . كنت شاعرا لا يجيد العزف المدوى .. تخذلنى العبارة ويلجمنى الرمز ! ، وكانت الطلقات أقوى من كل صوت ومن كل شيء آخر ، ولم أندم فى حياتى مرة واحدة على أننى شاعر ، لكنها حدثت هذه المرة وأنا أعيش هذه التجربة النادرة مع قوات الجيش الثالث الميدانى فى القطاع الجنوبى من الجبهة شرق القناة ، كانت الحقيقة والواقع أكبر من البلاغة ومن الشعر .. مستدعية ذلك الندم الغريب .. لكنها حينما لانت لى القصيدة ــ زمن الحرب وزمن الحصار مع قوات « بدر » ــ تمنيت لو كنت روائيا من طراز نجيب محفوظ أو « أندريه مالرو » أمتلك القدرة على التقاط الجزئيات البسيطة المبعثرة والمفردات الواقعية الساذجة والسلوكيات الانسانية الرقيقة فأحول كل ذلك الى عمل فنى من طراز نادر وأغزل من عناصره عبقرية روائية وأدبا يكون بلا أى افتعال أو زيف وبكل الحساسية والصدق تعبيرا عن تلك اللوحة العبقرية التى شكلها فعل أولئك البسطاء من أبناء الدلتا والصعيد على أرض سيناء وانتزعوا به لمصر مجدا تاريخيا بكل المقاييس .. صوره البعض

على أنه ضرب من المستحيل أو معجزة راح زمانها وولى مع زمن الأنبياء والمعجزات !

فى زمن الحرب كان أولئك البسطاء هم صلب المعجزة وجذوة المستحيل ، وكانوا هم الدم المشرق الشهيد الذى شكل لوحة الانتصار فى أبهى تكوين انسانى خلاق .

وكنت شاعرا .. تخذله العبارة ويضيق بالرمز فضاعت منى التفاصيل النادرة الثمينة فى ثنايا القصائد كما انضغمت حياة بكل حيويتها الواقعية فى جملة أو سطر شعرى وأحيانا فى تفعيلة أو تفعيلتين ! والأدهى من ذلك أن التجربة جفت كعين شح ماؤها وتوقف الشعر بتوقف زمن الفعل .. وحاولت .. وفشلت ، ولم يكن هناك غير تلك القصائد الخمس التى فرضتها التجربة وفجرتها تفجيرا أثناء القتال وأثناء الحصار مع قوات الجيش الثالث الميدانى شرق القناة ، وبرغم التفاصيل النثرية المتراكمة تراكم الرمال بداخلى حتى الآن والساخنة فى بعض مناطقها الحارة الا أننى لا أدرى بالضبط سببا معقولا لتوقف الشعر أو عجزه فى تحويلها الى كيان شعرى ، سوى أننى شاعر والتجربة التى أمتلىء بتفاصيلها تحتاج الى ذلك النوع من الأدباء ذوى البال الطويل والذاكرة الباردة الواعية والقدرة على التقصى والسرد بأعصاب هادئة غير مشدودة ، انهم أولئك الروائيون العظماء الذين يتحملون الانفعال ويدخلون أشد

المناطق سخونة مسلحين ببرود الجراحين المهرة .. ، انني بعد هذه المدة الزمنية الطويلة نسبيا والتى تفصل بيننا الآن وبين زمن الحرب فى السادس من أكتوبر ١٩٧٣ م أو بيننا وبين ذلك العام جملة تأكد لدى وبكل اليقين أن هـذه الحرب لم تكن بحاجة الى أمثالى من الشعراء الذين اختزلوا تجربتها الحية فى صورهم الشعرية المكثفة ورموزهم الأدبية المجحفة ، لكنها كانت بحاجة الى ذلك الطراز الآخر من الأدباء .. كانت بحاجة الى روائى موهوب ومبـدع يقوم على يومياتهـا وأفعـال جندها البسطاء وبطولات شهدائها الأبرار ومواقف رجالاتها الشرفاء ثم يربط ذلك كله بما اعترى ضمير الأمة بأسرها من خـلال دراما التحول الذى تفجر فى تلك اللحظات التاريخية النادرة على صفحة تاريخ أمتنا .

وكان لابد لمثل هذا الروائى أن يقف معنا موقف المواجهة فى زمن الحرب .. يشارك ويرى ، يعـانى ويجرب .. ، تختزن روحه وينشغل ضميره وتسجل ذاكرته ، وتفعل موهبته فعلهـا الأدبى فتجيء الرواية من طراز لا مثيل له كما كانت كل الأفعال فى تلك المعركة التاريخية من طراز لا مثيل له على كافة الأصعدة .

وربما يكون ذلك هو السبب الحقيقى الذى دفعنى الى أن أقدم القصـائد الخمس التى يضمها هـذا الديوان فى اطـار لحظاتها النثرية التى تفجرت معها ومن خلال اللحظات الواقعية

التى كانت تشكل بعداً جوهريا فى العملية الابداعية اللاشعورية التى ولدت تلك القصائد •• تلك اللحظات النثرية والواقعية تأبت على الشعر فى غالب تفاصيلها نظرا لطبيعة الشعر من ناحية ولطبيعتها هى فى سياقها الغير عادى والعبقرى من ناحية أخرى ، ولذلك ظلت عالقة بروحى •• تشاغلنى كل وقت وتغلبنى •• انها صور شعرية حقيقية لكنها لم تتحقق على الورق ، فخسرها الشاعر ولم يكسبها الروائى فى تلك الرواية التى لم تكتب بعد !

ان الشعر فى جوهره ذو طبيعة انفعالية واستجابة الشاعر الفورية للأحداث الكبرى تسلبه خاصية التقصى والسرد، ويكون الشعر فى هذه الحالة أشبه بالمواد سريعة الاشتعال بعكس الرواية التى من طبيعتها التعامل مع التفاصيل وخلق عالم كامل من الجزئيات فى بناء مركب ونسيج هادىء متضافر وراسخ كالجبل •

واذا كان الشعر الغنائى بطبيعته يميل فى أكثر صوره تركيبا الى فعل الراوى الفردى وأحيانا الى فعل الجوقة الغنائية ، فان الرواية تميل بطبيعتها أيضا الى الصراع الدرامى •• وهذا الصراع بطبيعته هو الآخر يحتاج الى الفعل الجماعى المتعدد الأبعاد •

ولاشك أن الحرب هى أقوى فعل جماعى تخوضه أى

أمة ، كما أنها تمثل علامة نادرة من علامات نضال الشعوب فى ذروة تألقه سعيا الى التحرر والسيادة والاستقلال •

ولاشك أيضا أن الحروب حالة فريدة من نوعها فى تعبئة الشعور العام والحس القومى لدى الأمم •• لا يضاهيها فى ذلك حالة أخرى من حالات الفعل الجماعى مهما كانت درجة هذه الحالة أو تلك فى الاستحواذ على مشاعر الجماهير أو تعبئتها •

ولقد كانت حرب أكتوبر ١٩٧٣ بالنسبة للشعب المصرى من أبرز علامات نضاله فى المرحلة الأخيرة من تاريخنا المعاصر ، بل ان هذه الحرب بما تمثله من قيمة تحررية رفيعة المستوى ومن قيمة تاريخية فى مواجهة عدو محتل ـ كانت له معنا تجارب مريرة سابقة على تلك الحرب ـ بمثابة نقلة عظيمة على مستوى الفعل الجماعى الذى سيظل ماثلا فى ضمائر الشرفاء من أبناء مصر وفى وعيهم القومى أبد الدهر •• ، ان كل مصرى بالتأكيد على طول امتداد خريطة الوطن كانت له مع هذه الحرب وسوف تبقى تجربة •• من نوع ما ، تجربة على المستوى الشخصى بمشاركته الفعلية فى زمن الحرب وصنع الانتصار أو تجربة على المستوى الاجتماعى المتمثل فى عنصر الاستشهاد الذى كان وسوف يبقى من أبرز النقوش الاجتماعية على بردية العبور العظيم •

ان استلهام هذه التجارب من جانب الأدباء الذين حاولوا التعبير عن ذلك الفعل الجماعى النبيل وزمنه التاريخي النادر لم تكن عملية بسيطة أو محكومة بقوانين الابداع العادية ، ولذلك جاءت الأعمال الأدبية التى قرأناها حتى الآن قاصرة فى نظرها الى حرب أكتوبر وفى تعبيرها عن الأبعاد الانسانية الشمولية التى تتضمن الموقف القتالى والموقف الاجتماعى والموقف التاريخى ناهيك عن المواقف السياسية والعسكرية المتعددة الأبعاد .

أما الأعمال الأدبية التى كتبها الأدباء المقاتلون الذين انصهروا فى ذلك الفعل الجماعى وشاركوا فى صنع أبعاده المركبة جاءت أكثر عمقا وأكثر صدقا .. ذلك لأن الخبرة النادرة التى اكتسبها الشاعر والكاتب على الصعيد النفسى والشخصى والاجتماعى والقومى أثناء هذه المعركة حركت فيه كافة منابع الروح المبدعة بشكل لا يمكن تكراره أبدا كما أنه غير متاح للتكرار أصلا على صعيد الرؤيا الابداعية لأى شاعر خاض المعركة ، فما بالنا بشاعر لم يخض التجربة ولم يشارك فى فعلها ؟ !

لقد هزت حرب أكتوبر ١٩٧٣ الروح القومى للشعب المصرى كله بلا ريب ، كما هزت الضمير الفنى لأدباء مصر وشعرائها وفنانيها ، لكنها ظلت فى حقيقتها وفعلها التاريخى أكبر

من كل الترددات الفنية والأدبية التى صاحبتها أو التى عبرت عنها بعد ذلك . وفى تصــورنا أن ذلك يرجع الى أن فعل الحرب كان فعلا قوميا جماعيا ووطنيا شاملا أيقظ الضمير الاجتماعى كما أيقظ الروح النضالية التاريخية للشعب المصرى فى لحظــة من لحظات سطوعه وتألقه ، فى الوقت الذى جاءت فيه الأعمال الأدبية والفنية معزوفات منفردة فى « كونشرتو » العزف الجماعى المعجز الذى يستعصى على مهــارة أى عازف مهما كانت قدراته ومستوى أدائه .. باستثناء بعض المعزوفات التى كان أصحابها يشاركون فى صنع النغمة الأساسية للأوركسترا .. لقد كانت طلقات هؤلاء العازفين فى صدر العدو تمثل مقدمات استهلالية واقعية لكل عمل أو قصيدة تدخل هى بايقاعها الميلودى فى حركة من حركات السيمفونية العظيمــة للعبور والاقتحــام والجرأة والاستشهاد والنبل الانسانى النادر .

وهذا .. ما سوف نحاول نقله بأمانة فى الصفحات القادمة والتى تضم تجربتنا المتواضعة فى شهادتنا هــذه التى تأتى من زمن الحرب والشعر معا .

الدخول الى التجربة ..

ليست التجربة الشعرية ، بالنسبة لى كواحد من الذين شاركوا فى عملية العبور فى أكتوبر ١٩٧٣ ، منفصلة عن كثافة الفعل النثرى للحياة اليومية المعتادة فى تلك الحرب أو فى غيرها من الأعمال الكبيرة والأفعال التاريخيـــة التى تكون انفعالات الانسان فيها ومشاعره معبأة بالشعر ومشتعلة بجمر الوطن فى آن واحد • فالتجربة الشعرية فى هــذه الحالة لاتكون تجسيدا جماليا فقط لذلك الفعل النثرى كما أنها لاتكون أيضا ولا تحتمل أن تكون تهويما فى بوتقة الخلق الفنى أو انتظــارا لمــا يسقط من عباءة شيطان « وادى عبقر » • ان أفعالا واقعية يأتيها جندى فى موقف بعينه كانت أكبر من أن يقتنصها شيطان أى شاعر مهما أوتى من قوة فى الخلق الأدبى أو عبقرية فى التصــوير الفنى •• وتظل التجربة أكبر من العبارة وأصدق منها • وكما يرى كثير من المخلصين للتجربة الفعل فان التجربة الشعرية فى هذه الحالة تقوم على ركيزتين أساسيتين ، تمثل احداهما البعد الاجتماعى الواقعى للتجربة وتمثل الأخرى البعد الجمالى لها ، كما أنهــا فى الوقت نفسه ــ أى التجربة الشعرية ــ تكون محصلة لعملية النظر بوعى الى التفاعل الحى والمستمر لجدل العناصر اليومية ومحاولة اكتشاف القوانين الأساسية التى تحكم تلك العناصر فى

تلك العمليـة التفاعلية وفى ديمومتهـا المستمرة وقدرتهـا على اكتساب شحنات جمالية خالدة •

من هنا فان العملية الشعرية بشكل عام يجب ألا تكتفى فقط بما تم اكتشافه من أصول جمالية ثابتة ، بل يتحتم فى مثل تجربتنا هـذه أن تندفع الى اكتشاف وتأكيد ما يمكن أن يتم التعارف عليه أيضا فى المستقبل •

ومن حق الشاعر ـ وهو يرتطم فى كل لحظة بعناصر شعرية مهملة ومبعثرة فى كل مكان ـ أن يقدم لنا تجربتـه الجديـدة الواقعية دون تزييف لنثرية وبرودة تلك العناصر المبعثرة والتى تكتسب سخونتها وشعريتها دون ريب خلال الوصـول بهـا الى العناصر/الشعر••وذلك فى تكامل التجربة وتخلقها الفريد•• ودخولا اليها •

واستعراض التجربة التى نحن بصددها مع الشعر والحرب والتى كتبت قصـائدها تحت لهيب النـار وبين دوى المـدافع وانفجارات القنابل وصوت القصف المستمر فى كل لحظة ، سوف نلاحظ تلك المحـاولة فى أن يظل التضافر حميما بين الشـعر والنثر اللذين تخلقا فى تجربة الحرب بالنسبة لى كتجربة انسانية• لقد فرض ذلك نفسه على من أجـل أن يعكس بصـدق تلك الكيفية التى كتبت بها القصائد فى سياق الحياة اليومية للمعركة• بل اننى قصـدت أن أضع بعض المقاطع الشـعرية التى تخلقت

كبادىء للقصيدة فى سياق اللحظة الواقعية التى أحاطت بها بالفعل .. فما كان يحدث أثناء القتال هو أن الواحد كان يعيش لصيقا بكل المفردات بل متداخلا معها وممثلا لعنصر من عناصرها الكلية المركبة ولايمكن بحال أن يفصل اللحظة الشعرية عن غيرها من اللحظات ، كما لايمكن أن يفصل الطلقة عن البندقية .

وفى هذا السياق المتضافر والمتواشج .. فى هذا النسيج الكلى المركب والمتداخل اختلطت لدينا نحن الجنود/الشعراء انفجارات القنابل بالخبز وعرق العساكر وصيحاتهم وتهليلاتهم بالشظايا والدم كما اختلط الكلام بالشعر ودموع الفرحة بالألم والشهادة .. لقد تداخلت اذن الدنيا بأسرها فى حجر صغير وتداخل الزمن فى لحظة واحدة . كيف اذن للشاعر أن يعبر ؟ ! وكيف يحاول تقديم كل ذلك فى قصيدة واحدة أو لوحة بانورامية عامة ؟ ان المسألة جد معقدة والمحاولة محفوفة بالمزالق .. ! وكان لابد أن تعكس التجربة صدقها الواقعى وصدقها الفنى معا بشكل أدبى ربما يكون خارجا على المألوف لأن كل شىء كان لا يخضع بأى حال من الأحوال لذلك المألوف .

ان التجربة التى نقدمها ليست استعراضا جماليا لشكلية فنية بقدر ما هى محاولة لتوخى الأمانة وتقديم التجربة بكل ملابساتها والتى فرضتها الضرورة الخاصة بها .. ودخولا اليها .

الرقص على طلقات الرصاص ..

وجئتك ـ سيناء ـ قلبى شظية
وعينـاى مفتونـة بالقتـال
وأنشـودة للرمـال الحبـالى
تسـابق
خطـوى
فتعدو الرمـال .

فمـاذا بعينيـك ..
غير الرصـاص
ولون الوجـوه
التى ...
لخصت عمرهـا
.. واسـتراحت !
وألقت الى الرمل سر التواصل
والذكريـات
تسـاقطن
فوق المعـابر
مثل ريـاح الخريف .
وكنت أحس بأن الدماء بكفى
تمزق ما رتبته الفصـول

وتمتد حتى ثمـار البروق
فحـاصرت شـوقى
وكسرت شقفة ما قد يخون
وما قد تحجر تحت دمى
لينفر من داخلى .. وجه أمى
كوجـه الجنود
ووجـه السـويس

***

أحبـك
هل ترقصين معى اليوم ؟
كل البلاغـات
مثـل الرمـال
ومثل الشظايا .. كثيرة
فهـل ترقصـين ؟
وبينك والقلب شوط طويل
من الحب
والحرب
والجرح .. رايـة ..
ومئذنة فى ضميرى
وخلف التـلال رؤى لا تحيد .
وعند اللقـاء تعرفت نفسى

وقبلت أول حفنـة رمـل
ودوى انفجـار
فعودت نفسى
وليس يفرق بين المحب وبين القتيل
سـوى الموت نفسـه
(وهـذا الشـهيد
يخاطب سعف النخيل .. هناك
وراء المعـابر
ويترك فـوق الشـظية
حـلما
ذبيحـا
وحلمـا .. جريئـا ..
فتزهر كل الشماريخ
ترمى زمـان التخـاصم
والجـوع
.. تحـكى)
ويهجر خوفى مساحته البربرية .

***

أحبـك ...
ليس يفرق بين المحب
وبين القتيـل

سـوى
المـوت !
مـاذا تقول البـلاغات ؟
انى نسـيت .. !
نسيت اللغـات ،
هنـا الأبجدية شىء جديـد
وأسـطورة ..
(لا أحب المرايـا
ولا أحـلم الآن
بالمستحيل)
فهـل ترقصـين ؟
واعـرف ...
هل من طريق اليك ..
سـوى هذه الصرخات الأليمة ؟
وعنف الدوى ؟
وكل الجراح تشـير اليك
فتعـدو الجـراح
تصـير علامـة ،
وهل أرفع الصوت فى الليل ؟
والليل يرفع عنى القنـاع
يعـرى خطـاى
فارقد فى ظل نجم صغير

.. أحبك
وأنفض ما قد يعوق سلاحى
فأشعر أن الدماء تفر اليك
وتضفر من كل نبض جديله
تحدث بالنصل والقنبلة .

***

كأن الزمان تخلف عند المعابر
فصار المدى أول العمر .. آخره
والمدى .. فجوة
والرصاص .. قناطر
وكل الرمال تعضد خطوى
فتنمو بعينى كل الوجوه التى
أطفأت حزنها
واستضاءت
وكل الوجوه التى لخصت
فى المدى
عمرها .
فهل ترقصين ؟
وهل نعرف اليوم
معنى التخاصر ؟ .

المدافع تضرب فى كل اتجاه ..

الوقت كان يقترب من الحادية عشرة ظهرا . اليوم كان الثالث والعشرين من أكتوبر ١٩٧٣ . آخر موقع تقدمنا اليه فى سـيناء .

كنا فى الليلة السابقة مباشرة قـد احتفلنا على طريقتنـا الخاصة باعلان وقف اطلاق النار .. نمنا ليلة بلا انفجارات .. ليلة مليئة بأحلام السلام المشرقة ، وكان كل واحد لا يصـدق نفسه وقد خرج من كل تجـارب الموت التى أحاطت به وعاش لحظاتها القاسية ، لا يصدق أنه حتى هـذه اللحظة يعيش دون اصابة واحدة ! حمدا لله على كل شىء ..

لكن الصباح كان محملا بالخيانة ويدفعنا الى اكتشاف رائحة الغدر التى زكمت أنوفنا مع رائحـة البارود الذى انطلقت به المدافع مرة أخرى فى الحادية عشرة ظهرا !

القطاعات تقفز على الخريطة أمامى بسرعة عجيبة ، البيانات التى أتلقاها من القيـادة تؤكد وجود العدو خلفنـا فى الضفة الغربية للقناة !

المدافـع نصفها يضرب فى اتجـاه الشرق والنصف الآخر

توجهنا بمواسيره الى الخلف لكى تلاحق العدو المتقدم خلفنا فى ضفة الغرب والقادم باتجاه السويس من الدفرسوار .

تخلصت من الخوذة فى ضيق ، ألقيتها فوق كومة الرمل على حافة الخندق الذى نعمل بداخله فى سيناء . الأرقام ظلت تتضخم أمام عينى ، كنت أحس داخلى بشىء آخر يتضخم بلا توقف فبصقت على الرمل بعيدا عن حافة الخندق وضربت بظهر يدى ذبابة لزجة لا تكف عن المحاولة خلف أذنى اليسرى .

أبلغت بيانات الضرب للمدافع المتجهة ناحية الغرب والمدافع المتجهة ناحية الشرق ، واختنقت بالبكاء .. لكن عينى تحجرت وأنا أرى الكل يعمل فى وجوم .. رغم الحركة العنيفة والحادة التى يعج بها الموقع !

ثم راحت المدافع تضرب فى كل اتجاه بغضب مدوى .

... ...

فى نفس اللحظة تقريبا .. فى الحادية عشرة من صباح الاثنين السادس من أكتوبر ١٩٧٣ كانت الكلمات تأتى عبر أسلاك التليفون كأنها تصعد من بطن الأرض الحبلى متراقصة ومشحونة بالحنين .. وكانت اللحظة المنتظرة تتجسد فى صمت متسع بلا حدود ، والجبهة صامتة كأن ليس بها جندى واحد ! لكن صوت دقات القلب ودوى الرهبة كانا يسريان فى باطن

الأرض كالصلوات الطـاهرة . وفى انتظار الاشارة بالبدء الذى سوف يشفى الغليل . فى تلك اللحظة ولأول مرة منذ عام ١٩٦٨ حين دخلت صفوف الجيش كنت أحس ان هـذا الجهاز الصغير ذا الصوت الحـاد والرنين المتواصل والذى يعمل بطريقة غير مألوفة فى التليفونات المدنيـة ، كنت أحس أنه يمتلك كيـانى ويتحكم فى نبض القلب !

صوت الرائد عبد العزيز كان يتخلل سماعتيه كأنه يأتى من مسافات سحيقة عبر الأسلاك المدفونة (كان يحمل كل هـذا القدر من الألفة) يبلغنى الأوامر :

جهز غرفة العمليـات يا شاويش أحمد . اختبر كل شىء بنفسك . سوف نعبر فى منتصف الليل .. سوف آخذ تمـام المدافع وأجىء اليكم فى غرفة العمليـات بعد قليل . العسكرى اسـماعيل كان لا يكف عن المداعبـة .. والضحك ! كأن كل ما يحدث أو ما سوف يحدث لا يزيد عن مجرد رحلة أو استعداد لقضاء يوم عطلة جميل !

كان هذا العسكرى يمارس نوعا من الخروج على قانون الطبيعة البشرية أو التمرد على الحس البشرى العام .. فبرغم الرهبة الطاغية والتحفز المشحون بكل الخواطر كان العسكرى اسماعيل لا يأبه بشىء وكان يمارس جنونه الخاص !

ما كنت أعرف طوال سنوات خمس مضت قضيناها سـويا فى الجبهة بقطـاع السويس أن هـذا الشاب النحيل الأسـمر القادم من احدى قرى كفر الشيخ ـ بكل أدبه وريفيته ـ سوف يتفجر بهذا القدر العجيب من النشـوة والحيوية واللامبـالاة والفرح بالحرب الى هذا الحد ! • فى الواقع كان اسماعيل يعبر عن شعور بالسعادة حقيقى وكان يلخص كل شىء ببلاغة فريدة •• نهرته فى حزم فقفز ضاحكا وهو يرفع خوذته الى السـماء ثم يتلقفها على فوهة البندقية • (تذكرت الهنود الحمر والقبائل التى تسكن أواسط أفريقيا •• وتذكرت بيكاسـو) واجهنى بتحد وهو يقول :

يا شاويش أحمد نحن الآن سواسـية (الحرب والموت يزيلان كل الشارات والألقاب) قال !

ثم نظر الى موجها كما هائلا من النظرات الغريبة الصادقة والمحملة بكل معانى الرفض والتحطيم بقدر ما هى محملة بكل معانى الاحترام •• وكأنه تذكر شيئا نسيه طوال العمر ، هتف :

أحمـد •• أيـوه أحمـد فقط (هـكذا دون أى لقب عسكرى !) وأنـا اسماعيل أيضا •• فقط •• ثم قهقه عاليا •• وهرول بعيدا •

كانت معـدات الحرب تترجرج حول خصرة وهو يهرول، وكأنها تبغى الافلات فبدى كفرسان العهد القديم .

كنا قـد جرحنا صيامنا بمجرد التأكد من أوامر المعـركة، وتناولنا عصير الفواكة ورحنا ندخن السجائر بلا توقف فى عز يوم من أيام شهر رمضان الكريم بلا حرج فقد كان ذلك بالأمر العسكرى المسنود بالأمر الشرعى أيضا .

كانت اللحظة المنتظرة قد حلت رموزها وتحددت ، وبمجرد علمنا بها تحولت هـذه اللحظة (الثانية الا خمس دقائق ظهرا)، الى صخب هائل من الأرقام فوق الخرائط وتختة ادارة النيران والخطة ٢٠٠ المدونة بكل قطاعاتها منذ أعوام عديدة وثقيلة مضت، فوق هذه الخرائط .. كانت الأرقام :

٣٢٧ — ٣ × ٦ × ٣٠ — ١٣٥٥ . خط أول

خط ثان . احتيـاطى تكتيكى — ٢ عامل لاسـلكى — ٢ خطى — ٢ معاون ... ... تعنى الكتيبة وقوة الموقع وقدراته الفنيـة .

القصفة الأولى أزاحت كل ما تجمع فوق المدافع من سنوات القلق والانتظار .

سيل نحيل من الرمل يتسرب فى انتظام بالغ من بين ألواح الخيش المقطرن الذى يبطن غرفة العمليات والذى يعلو أقفاص

الحديد المقوسة التى تشكل جسد الغرفة أو هيكلها الحديدى الذى يشبه القفص الصدرى لحيوان ضخم من الحيوانات الخرافية المنقرضة .

كانت الرمال تتجمع فوق الحذاء الميرى بلا مبالاة متسربة من بين شقوق الخيش المقطرن ، (لم تختبر قط تلك الغرف فى عمل حقيقى قبل الآن) .

البلاغات تأتى عبر اللاسلكى من الضفة الشرقية مؤكدة وجود زملاء الاستطلاع خلف خط بارليف .

سرب من طائرات الميج ٢١ يمخر سماء الكتيبة عائدا من عمق سيناء بعد تنفيذ مهامه بنجاح .. الطائرات تعبر عن فرحتها بحركات بهلوانية سريعة سرعة البرق وهى تزمجر فى سماء كتيبتنا باتجاه قواعدها .. انها تعطينا الاشارة الحقيقية لمقدمات النصر المحقق .. تنطلق الأصوات بقوة مشحونة بالصدق : الله أكبر .. الله أكبر .

(الخط .. الخرافة .. القناة .. النابالم .. الفانتوم .. السنتريون .. النكسة .. الاستنزاف ..)

العسكرى اسماعيل يلتقط الاشارات ويدون فى جدية ورجولة ، ثم يزيل هرم الرمل الصغير الذى تكوم فوق الحذاء الميرى بطيش صبيانى !

أخرج من الجربندية المربوطة حول خصره علبـة عصـير جوافة ، رشقها مرتين بطرف السونكى الحـاد •• راح يزدردها وعيونه تلمع بنشوة فائقة • رمضان كريم يا شاويش أحمد ، قال • ثم صاح فى بهجة حقيقية : المغرب ادن يا صايم افطر •

كانت الشمس قد غابت تماما خلف الأفق البعيد ورائحـة البارود تملأ كل الدنيـا من حولنـا والغبـار يعلو الى آخر الشوف •• ولاشيء غير الحرب يملأ الوجدان والعقول والأفئدة•

وكان الرصاص دافئا كحبة القمح المباركة •

وكنا مازلنا نضرب بالمدفعيـة الثقيلة ونتلقى الاشـارات المنتصرة من قواتنا التى عبرت وتقدمت داخل سيناء •• وتتعجل لحظـة اللحاق بها •• تلك اللحظة التى بدت وكأنها تتلكأ بعيدا بعد آلاف السنين !

كل البـلاغات
مثل الرمال ومثل الشظايا
كثيرة •• !
وبينك والقلب شوط طويل
من الحب
والحـرب
والجـرح •• رايـه
وخـلف التـلال
رؤى
لا تحيـد ••• ،

أين أموت وأبعث من أجل خلود أبدى ؟

العسكرى اسماعيل عاد فى الثالثة والنصف من بعد الظهر يحمل الينا قدرا كبيرا من الحلوى والطعمية والبرتقـال والخبز البلدى والليمون والجبن الرومى وأعـواد القصـب .. وكل الأشياء التى أوحشتنا أثناء القتـال وأيام الحرب التى مرت . كان ذلك فى يوم الثالث والعشرين من أكتوبر .

وكان العسكرى اسماعيل يحمل أيضـا هـذا القدر من أخبار السويس بكل أهميته وخطورته !

لم يكن هناك وقت يتسع للمناقشة والحوار .. ألقى عن كاهله بكل ما يحمل من الأشياء والأخبار القادم بها من السويس ثم وضع سماعات جهاز اللاسلكى على أذنيه .. ضبط التردد وراح يدون ، ثم اندمج سريعا فى العمل . همس فى أذنى ـ وهو يتلقى اشارة عاجلة من القيـادة ـ همس : المقاومة الشعبية فى السـويس .

وكسرت شقفة ما قد يخون

وما قد تحجر تحت دمى

لينفر من داخـلى

وجـه أمى

كوجه الجنود
ووجه السويس .

تأكد لدينا بشكل قاطع ضراوة ما تخبئه الأيام لنا ، كما تأكد لدينا حجم ردِ الفعل الواجب بازاء ذلك ومدى التعبئة التى يجب أن تتعبأ بها جميعا رغم الرعشة السوداء التى اقشعرت بها الأبدان والقلوب .. لقد كسرنا شقفة الخوف حينما عبرنا حاجز الرهبة أول يوم فى القتال بل حينما نذرنا أنفسنا لهذه الأرض الغالية التى شفناها وجها لوجه ولمسنا رملها وحررنا ما حررناه منها بدماء زملائنا وعرق قلوبنا وسهر الليالى الطويلة التى مرت .. ومازلنا نأخذها فى أحضاننا وننام بها ولن يسرقها منا أحد مهما أوتى من قوة فى الغدر أو قدرة على الخيانة ، مازالت الأنجم تحرسنا ، والألحان الشجية الرهيفة بكلماتها الحنونة الغالية تتسرب الى وجداننا من الترانزستور تؤكد لدينا قوة الصمود الكامن فى خطوط دفاعاتنا المعنوية ، ان هذه الألحان وتلك الكلمات لها رائحة الغرف الدافئة البعيدة وطعم الشوارع والحارات والنواصى وملاعب الأيام الخوالى ولا شىء يعدل كل هذا ولا شىء يعدل طعم الدموع الأبية .

كانت تنمو بداخل كل واحد منا نخلة للوطن ويكبر صوت الأذان الآتى من صوت الشيخ محمد رفعت وصوت الشيخ النقشبندى فى تراتيل الليالى الطيبة . وأقسمنا على

البقـــاء فوق الأرض وبين أحضانها قسما عظيما بليغ البيان رغم تلك الخديعة الفجة التى فاجأنا بها العدو .

كانت أخبار السويس بكل بسالتها وصمودها تأتينا كل يوم فتزرع بداخلنـــا نخلة جديدة للوطن ذلك الذى نذرنـــا له أنفسنا مرتين .

وبدأنا رحلة جديدة من الصمود .. لم ترهبنا بيانات اذاعة العدو ولا طائراته التى تتحرش بنا وكنا أكثر تماسكا من أى وقت خلال العبور لأننا كنا ندرك معنى التحدى الذى نمثله ولأن هذا التحدى كان لا يعنى فقط مجرد الشرف العسكرى أو مجرد حب الوطـــن .. لقـــد كان يعنى الارادة التاريخيـــة للشرف والوطن معا .

فى بداية الحرب وربما قبل هذه البداية كان طعم الخـــوف له مذاق مر ، وكان ذلك الخوف شيئا انسانيا طبيعيا وشـــعورا بشريا لا اراديا لايمكن أن يلوم الانسان نفسه عليه .. انه نتيجة حتمية لمـــا يحسه الفرد حينما يواجه المجهول الذى ينتظره فى المعركة كما أنه محصـــلة للرعب التاريخى الكامن فى آلة التدمير اللاأخلاقيـــة وكل التصـــورات البشعة التى اختزنتهـــا ذاكرة الانسان قبل هذه اللحظة والتى تشكلت بفعل حكايات الحروب السابقة وأيضـــا بفعل الخيال الذى تولده الأفـــلام السينمائية والروايات الأدبية وغيرها من الأعمال الفنية التى أصبحت جزءا

لا يتجزأ من حضارة الانسان الجديد . لكنه فى النهاية احساس فردى وخوف فردى ينزاح مع الطلقة الجماعية الأولى تلك التى تحول الفرد الى جزء من الكل يتحرك بارادة ذلك الكل ويفكر بالعقل الجمعى العـام الذى يسيطر ويتحكم ويفعل .. هـذا التحول هو الذى يجعل الموت متاحا أكثر من الحياة وهو الذى يحول الخوف الى شجاعة ويقلب شعور الانسان رأسـا على عقب .. وتكون الرغبة فى الاستشهاد جزءا من الشعور الجمعى العام المسيطر والذى يرى فى الوطن أكثر مما يرى فى ذاته الفردية التافهة . لكن هـذا التحول لا يصيب الجميع وليس هنـاك من قاعدة دون استثناء .. وهـذا الاستثناء يبقى طوال فترة القتال التى تطول أو تقصر رعديدا يرعبه خيال شـباك التمويه فى الليل اذ يظن ذلك الخيال جحافلا تنقض على روحه وتتربص بعمره فى كل خطوة فيقبع فى خندقه أو حفرته الضيقة أو فى قبره الصغير مخنوقا بفرديته ومكبلا بذاته لا أكثر ولا أقل رغم تنفيذه كل الأوامر مثله مثل أى شجاع آخر برغم أنفه .. ورغم ما قد ينسحب عليه من ألقاب الاستشهاد اذا ما أصابته شظية طائشـة وهو كامن فى خندق خوفه ورعبه الرخيص لأن الشظية لا تفرق بين الشجاع وغيره والموت لا يعطى فرصة لأحد .

احبـــك ..

ليس يفرق بين المحب وبين القتيل

سـوى الموت

ماذا تقول البـلاغات ؟

انى نسـيت !

نسـيت اللغـات .

وهـل من طريق اليـك

سوى هذه الصرخات الأليمة ..

وعنف الدوى ؟

كان المعبر مهيبا بلا حدود .. القصف يدوى على الجانب الآخر ، والسماء مكفهرة بصـوت الطائرات وصواريخ الدفاع الجـوى .

لون الحرب يسيطر على كل الوجوه والأشياء .

كنا قد أمضينا ليلة طويلة فى انتظـار هـذه اللحظـة .. اذ تأجـل عبورنا من منتصف الليـل الى ظهر اليوم التـالى (٧ أكتوبر ١٩٧٣) .

كان العلم المصري بألوانه الثلاثه سامقا فوق الخط الجهنمى (خط بارليف) .. ذلك الخط الذى كان يبدو لنا ونحن نعبر كوحش خرافى بقرت بطنـه فاستلقى بلا ارادة ولا قوة يلفظ أنفاسه الأخيرة !

الدخان الناتج عن الانفجارات داخل سيناء يفصح فى هذه اللحظة التى نعبر فيها عن عمليات لا تتوقف .

وسط مياه القنـاة ـ ونحن نتقدم فوق المعبر صـوب الضفة الأخرى ـ سقطت عدة قذائف قريبة جدا من المعبر حولنا، صنعت نوافير رهيبة من المياه ، لكنها راحت على خير والحمد لله ، زاد ذلك من رعشـة القلب ونحن نقترب أكثر من المجهول ، فتماسكت قلوب وتفسخت أخرى •

الرائد عبد العزيز يتقدم القول بعربته الجيب ومعه مجموعة الاستطلاع ، وحين وصـل الى نهاية المعبر كانت العربة المجهزة كبيرة الحجم والتى أستقلها أنـا والسائق فقط (والمعدة لمجموعة رئيس العمليـات) فى منتصف المعبر •• كنت أجلس الى جوار السائق فوزى فى الكابينة وقد تحول كيانى كله الى جهـاز استشعار تام الحساسية ، فى حين كانت المجموعة كلها قد سبقتنا جريا فوق المعبر الى الضفة الأخرى •

(الحـب أو المـوت)

فى الحقيقة •• كنت أفكر فى أشياء لا حصر لها ، وتذكرت أشياء لم تخطر على بالى من قبل •• لون المـاء الرمادى ذر فى نفسى قدرا من الكآبة • تذكرت أمى التى لم أصافحهـا حين خرجت من البيت يوم الثالث من أكتوبر ، اذ كانت توجهت الى السـوق وتركتنى نائما أعـانى من الانفلونزا ونصحت أختى « رشيدة » أن تعد لى الفطور حتى لا أصـوم ذلك اليوم فأنا مريض وعلى سـفر فى نفس الوقت • تذكرت أيضـا ملامـح

« رشيدة » لحظة خروجى من المنزل بالزى العسكرى وصوت عبد الوهاب ينطلق من الراديو : « حب الوطن فرض عليا .. » . تذكرت دلك وغيره .. لكننى ظللت متماسكا الى حد بعيد ، وتحيـــة الجنود الرابضـــين حول جانبى المعبر المشحونة بآلاف المشاعر والانفعالات ــ رغم القصف المستمر واحتمالات الخطر والموت القائمة فى كل لحظة ــ كانت تذكرنى بعمال التراحيـــل أو عمال انوردية الأخيرة فى مصنع الغزل بالمحلة الكبرى الذين أعرفهم تماما ، بعد عمل الليل كله بكامل اليقظة والترقب والتوقع والخشية ، وأعرف مقدار التعب الذى يثقــل كاهلهم ويتسرب رغما عنهم الى العيون والملامح . كان أولئك الجنود الرابضين بلا خوف يبثون فى نفوسنا ــ لحظة العبور ــ أسمى احساس بالشجاعة وحب الوطن .. وكانت عيونهم المرهقــة تنقل الينا شحنة كهربية غامرة تؤكد لدينا القدرة على النصر .. لأنهـــا كلها بسحنتها التى تلخص كل أبناء الدلتا والصعيد كانت تتجـــه صوب هدف واحد ، والعربة المجهزة هى الأخرى كانت تتهـــادى فى اصرار وتؤدة صوب الشرق .. وصفحة المـــاء تمتد على طول الجانبين فى جلال واطمئنان ورضـــا وحنو لا تنطق به حبـــات الميـــاه .

(وأنـــا القى الى المـــاء تعويذة من قطع النقود الصغيرة

تنبـــه الســـائق فـــوزى الى ...

أخذ مني بعضها وألقاها هو الآخر الى الماء الرمادى
الغـريب .
لم يسـألنى عن معنى هـذا الفعل ولم أسـأله أنـا
أيضا عن دوافعه لتقليد ما أفعله !
وحينما وجدت بين قطع النقود واحدة من ذات
العشرين قرشـا على أحد وجوههـا صـورة
جمال عبد النـاصر احتفظت بها دون سـبب جوهرى
واضـح !
كنا نقترب من نهـاية المعبر .
يا آلهة المـاء ويا ربات الموج ويا قدسية كل اللحظات .)

وصلنا الى حافة القناة فى ضفة الشرق .. ظهر العسكرى اسماعيل فوق الخط الرهيب ، زعق : دوس يا فوزى . نقل فوزى على الأول مع فتيس الغرز . اندفعت العربة الى أعلى .. كانت العربة تتسلق الخط الترابى الجبار من الفتحة التى صنعها فى جسده رجال المهندسـين بآلاتهم البسيطة وخراطيم الميـاه القوية التى فتكت به ، وكانت زاوية الصعود من حافة القناة فى نهاية المعبر حتى أعلى الخط لا تقل عن ٣٥ درجة .

(على مسافة بعيدة بانت لنا سيناء بتضاريسها الواضحـة وتبابها الرمليـة التى كنا نتطلع اليها يوميـا طوال السـنوات

الخمس الماضية •• كان هناك عدد من الانفجارات القوية وصوت المدفعية المضادة للطائرات فى مطاردة مستمرة ، تعرفت على صوت المدفعية عيار ١٢٢ مم بعيدة المدى وهى تنطلق من موقع قريب خلف التباب التى أمامنا) •

ركب كل الزملاء من مجموعة رئيس العمليات داخل صندوق العربة المجهزة مرة أخرى ، اتجهنا بسرعة نحو أول حفرة وأنزلنا فيها العربة الضخمة فى انتظار تجمع باقى القول من العربات والمدافع • كان لابد من الانتشار حيطة ضربة من الطيران المعادى •

اقشعر جسدى وأنا أهبط من العربة المجهزة وبحركة عفوية لا ارادية وضعت يدى فوق الخوذة وأنا أجرى محنى الظهر الى ثنية أرضية قريبة وأنبطح أرضا وأزعق فى الزملاء أن ينتشروا جميعا ، لكنهم وأنا معهم كنا نقبل الأرض وتنهمر منا الدموع بصورة لايمكن تقدير انفعالها ولايمكن وصفها بحال من الأحوال •

(هزنى بعنف وجه جندى شهيد يتوجه به جنديان على محفة عسكرية الى ضفة الغرب) •

وتذكرت صباح السادس من أكتوبر حينما صدرت الينا الأوامر صراحة بالاستعداد للعبور ، وأول خاطر راودنى هو

الرغبة العنيفة فى الحياة .. لا لشىء الا أننى أحب أن أعيش تلك التجربة وأعبر عنها . كان الموت يعنى الموت وكانت الشهادة شيئا طوباويا لم أعانيه من قبل كما كانت شيئا يبدو لى وكأنه ينتسب الى زمن آخر ، وتمنيت أن أعيش ليس خوفا من الموت ولا هربا من الشهادة ولكن لكى أرى كل شىء وأمارس كل شىء وأحتك بكل ما سيحدث وأتداخل مع العناصر النادرة التى لن تتاح الا للقليل جدا من الكتاب والشعراء الذين كتبت لهم الأقدار أن يكونوا فى هذه اللحظات التاريخية ضمن قوات العبور « وتذكرت بابلو نيرودا » لماذا ؟ ! لا أدرى بالضبط ! لكننى تذكرته وتمنيت أن أعيش لكى أخوض التجربة وأعبر عنها بشكل يختلف عن كل تعبير وبصورة لن تتحقق لغيرى من الشعراء خارج هذه اللحظة الفريدة من الزمن ، ولأننى كنت أشعر أن الوطن يحتاج لى تسجيل هذه اللحظة قدر احتياجه الى فعل القتال والتحرير وفعل الشهادة وكل هذه الأفعال التى تغير جغرافية المكان وطبيعة الزمان فى بهائها التاريخى النادر . ولأننى كنت ومازلت شاعرا لا يعبر عما يعيشه أو يجربه بشكل فورى مثل غيرى من الشعراء .

لكننى حينما قبلت الأرض ورأيت وجه الشهيد المضىء راحلا الى الغرب على محفته المقدسة وشممت رائحة السنين والأيام مختلطة برائحة البارود ولون الرمال فى تلك اللحظة التى

يغلف التوتر فيها كل شيء انطلقت من قيدى القديم وتفجر الشعر مثل عين سلسة جارية فى سياق ملابسات لم أتخيل يوما أننى بقادر على التصرف بشـــكل طبيعى فى ظلها لا أن أكتب شعرا بهذا الوضـــوح .

وجئتك ـ ســيناء ـ قلبى شسـطية

وعيناى مفتونة بالقتــال

وأنشــودة للرمــال الحبــالى

تســابق خطـوى

فتعدو الرمــال

فماذا بعينيك غير الرصـــاص

ولون الوجوه التى لخصت عمرهــا

واســتراحت

وألفت الى الرمــل سر التواصــل

والذكريــات ..

تســـاقطن فــوق المعــابر

مثل ريــاح الخريف .

ويكون الانسان هدفا للموت ـ القتل أو الموت ـ الشهادة ..

ويكون الانسان هدفا للحياة ـ النجاه أو الحياة ـ البراءة..

ويكون الانسان فى أمس الحاجــة الى الانســان

هــذا قانون أو لا قــانون الحرب

رأيته بنفسى وتعاملت معه وانصهرت فى تجربتــه العميقــة القاسية أربعة أشهر لا تنسى .

وليس يفرق بين المحب وبين القتيل

ســوى الموت نفســه !

كانت الساعة تقترب من السادسة مساء ٩ أكتوبر ١٩٧٣ ، كنا قد انتهينا من تجهيز الموقع الجديد الذى تم احتلاله داخــل سيناء ، موقع تتوافر فيه كل شروط الاخفاء والتمويه ، ويسهل من خلاله التعامل بالمدفعية الثقيلة عيار ١٠٠ مم مع العدو حتى مسافة ٢٠ كم .

حددنا الاحداثيات وضبطنا المدافع على محــاور الضرب وأخذنا راحة فى انتظار أوامر جديدة من القيادة .

رائحة المكان كانت مزخومة بالبارود والاطارات المحترقة ومواضع انفجارات وبقايا مهمات وأشــلاء وبقايا آدمية ودماء .

خلفنا كانت الدشــمة الحصينة تبدو من بعيد بأســلاكها الشائكة وممراتها وخنادقها بلونها البغيض بعد أن فجرتها جحافل قواتنا الزاحفة فى موجة العبور الأولى .

كان هناك عدد من العربات النصف جنزير مازال الدخــان

يتصاعد منها ومازال صلبها الذى يحترق يصـــدر ازيزا موجعا وأنات حديدية مبهمة !

استأذنت الرائد عبد العزيز فى استكشاف الموقع الاسرائيلى المضروب خلف الطريق الأسفلتى من ورائنا وعلى بعد حـــوالى ٤٠٠ مترا ، الشمس كانت تميــل الى الغروب خلف نخيــل « الجناين » فى الضفة الأخرى من القنـــاة ، صرح لى الرائـــد عبد العزيز بشرط اصطحاب أحد الزملاء والانتباه فى كل خطوة والحـــذر •

كانت الدبابة الأولى تميل جانبا • المـــاسورة مقصــــوفة من أمام البرج ومتجهة ناحية الشرق دليلا على أنها كانت فى طريقها الى الفرار أمام الجنود الـ « آر بى جى » المحمولة على الكتف وأجهزة مطاردة الدبابات بصواريخها الصغيرة التى لاتخطىء الهدف والتى غيرت موازين الحرب لصالحنا منذ اللحظة الأولى للعبور • ناحية الجنوب كان الجنزير مفتتا وممدودا بطول مترين تقريبـــا مثل لسان كلب انهكه قيظ الصحراء المميت !

صعد الرقيب سيد الدمرداش الى أعلى البرج ، لكنه قفز مذعــورا الى أســفل ووجهـــه أشبه بخريطـــة معقدة الخطوط والتضاريس • قال : هيا بنا ••• ••• فى لحظـــة واحدة كنت أعلى البرج بمواجهة الموت المجسد •• كان الجسد ضئيلا ••

غاية فى التحول ، الرأس الى أسفل والأرجل مفتوحة الى أعلى بشكل رقم سبعة مائلة ومنزوعة الحـذاء . القتيل بلباس البحر فقط .. باغتنى المنظر (حين تفصح الحرب عن نفسها فى بشاعة، تختفى كل الألوان وتزول ملامح البلاد والأجنـاس ، وتكون أمام الانسان مواجهة نفسه كانسان .. فقط .. كانسان !

فى تلك اللحظة انتابنى شـعور حقيقى بالتعاطف مع تلك الملامح المستسلمة للموت والممسوحة من أى تعبير .. وكرهت الحرب) .

هبطت من فوق البرج ممتلئا بحزن عميق وأسى لايوصف . صوب دبابة أخرى طراز سنتريون مبقورة من الجـانب الشمالى وعلى بعد خمسة أمتار تقريبا كانت أربع جثث مطروحة ظهرا .. تشكل ـ لا أدرى عن قصـد أو مصادفة ـ رسـم الصليب احداها بلباس البحر فقط هى الأخرى .. ، فوجئت بالزميـل سيد الدمرداش ينظر الى فيما يشبه الذعر . قلت : انه صراع الحيـاة والموت ، والحق لا يترك فرصـة للاختيا ر. فى أى الجانبين نكون ؟ مع الموت ـ الوطن ؟ أم الحياة ـ الاستلاب ؟!
ولم نشاهد باقى الموقع ... ...

اسـمع يا سـيد .. هـؤلاء القتلى بشر ، أعرف ، لهم زوجات .. ربما ، أو أبناء ، أو أهل بمعنى ما .. ، وفى هـذه

اللحظة التى يرقدون فيها على هـذا النحو اللاانسـانى كل فرد من ذويهم يفكر فيما يخصـه منهم ويتمنى له السلامة وينتظر عودته بعد الحرب ! أو هو يفكر الآن فيه وكفى ولا يتصـور على الاطلاق أنه يموت بهذه الصورة ويرقد الآن بهذه الكيفية وسـوف يظل بهذا الشـكل حتى يحـكم الله وهو أحـكم الحاكمين ! •• اننى ضد الحرب •• ولكننى مع الوطن •• ونحن نعرف أى وطن ندافع عنه • مضينا بعد ذلك فى صمت ••

كان الزميل سيد أحد الرجال الذين أكن لهم حبا خاصا وكنا قد أمضينا معا بالجبهـة أكثر من ثلاث سـنوات •• وهو « بلدياتى » •• زارنى بمنزلى فى القرية وزرته بمنزله فى المدينة وخضنا سويا معـارك الاستنزاف وتعرضنا لكثير من المواقف الصعبة •• لكن الحرب كانت شيئا مختلفـا تماما عما ألفنـاه وتعرفنا عليه فى سنوات الاشتباك •

مضينا فى صمت تجاه موقعنا ووجه شهيدنا الذى رأيته أول أيام العبور الى سيناء ــ يعبر به الجنود الى الضفة الأخرى ــ يلح على ويحفر فى ذاكرتى أخدودا متزايدا •

مضينا فى صمت ، وربما كان سـيد يفكر فى نفس الشىء الذى كنت أفكر فيه •• ترى من منا سوف يلاقى مثل هـذا المصير أولا ؟ وما هى الاحتمالات فى أن يكون الواحد منا له

نفس هـــذه النهاية المؤسفة الغير معقولة ؟ ! وأين هى الشعائر والطقوس العادية ؟ ومن لها وسط هذه اللحظات الخارجة عن اطار الزمن العـــادى ؟ ! •• هيه ! لا يهم الشـــاة سلخها بعد ذبحها •• تذكرت ذلك المثل الشـــائع القديم وأنـــا أربت على ظهر صـــديقى وأنفث زفرة ساخنة موجعـــة ومستسلمة • كانت الشمس مكتملة الاستدارة •• برتقالة كبيرة حمراء تتدحرج حثيثا خلف نخيل الجـــانب الغربى من القناة ، وكان الشـــعر يتقاطر كالدمع :

وهـــذا الشـــهيد ••

يخـــاطب سعف النخيل

هنـــاك •••

وراء المعـــابر

ويترك فـــوق الشظيـــة

حلمـــا

ذبيحـــا

وحلمـــا

جريئـــا

••• ••• •••

تقش على بردية العبور ..

أحـاور الوطـن
وخرائط الوجـه المقدس
والمواسـم كلهـا ..
والعـرس لى ..
أحـاور
الوطـن .

***

أحـط خنجـرى
على جبينهـا
ودفترى ..
على الرحـم .
أخـوض ..
فى لون العيون المقمره
(لو أبصر العمال ـ يا سيناء ـ
فى عـرس الطقـوس
كل السـواقى ..
غيرت ايقاعها ...)
أخط فى صحائف البردى

.. نقــوشى
كى تعرف الأسماء ـ شمبليون ـ
تتلو .. ما تقول به الحجـارة
والدمــاء .

***

ما كنت أصطـاد الريـاح
وأنــا أقيم معــابرى
وأخط ـ فى صحف الرمال ـ
شـــعائرى
وأشــد معرفة الشـــموس
فتعرف الأسماء .. ناولنى يديـك
مازلت أضرب فى الســدود
وأقتفى ايماءة الوجه العبوس
وعلى حصــان البرق .. مئذنتى
تحـــدث
بالدخان وباللهب .
(ما كنت أحســب أننى ..
ـ بين امتداد الريح والقوافل المسافره ـ
بردية محيره)
فتعــال .. ناولنى يديك
واكتب معى .. للنصر .. سطرا
فى جبين الشـــهداء .
***

أغنيـــة :

يا وجه من أحببت ــ شوطا فى الخنادق
تــارة ..
فوق المعابر
والريــاح ــ
لو كان حبى معصيه
ما كنت أدمنت الســـباحة
بين قــلبى
والجــراح .
فتغـتيرى ..
يا شارة الوجه القديم
كونى لنــا فراشــة
أو نحــلة شــغاله
لا ترقصى ــ فى السر ــ لا تضيعى
يا قوتــة الجنود
وغــيرى وقــع الخطى
أعطيك شارتى .. وسترتى ..
أعطيك ما قطفت من سبائك البارود !
فاننى .. ما بين قلبى ... ... والهوى
تساقطت
ممــالك
ضــاعت
بلا أسماء .

عرس النـيران ••

بعد ثلاثة أيام من القتال والحماس والفرحة بالخطو الطاهر فوق الرمال الطاهرة .. كان النوم يزاول مهامه الانسانية فى جفون البشر وأجسامهم هناك .. بعيدا عنا .

كانت عيوننا ـ حقيقة ـ ترفض النعاس ، حالة من اليقظة الذهنية تسيطر على العيون والأجسام ، تستغرق الروح والأعصاب والوجدان .. وآناشيد الحرب المشحونة بالشجن تعجن بداخلى خبز الوطن وتطعمنى فطيرة الحياة المقدسة .

ما أعظم الفن حين يكون وجها حقيقيا للحياة وتعبيرا موازيا للحدث .. انه يكون فى بساطة الفعل وقيمة الانسان ويكون دافعا لكل عمل خلاق ومبهر ، يتحول الفن الى طاقة فاعلة ومنتجة كأى أداة أخرى وفى حجمها بالضبط .. هـذا ما كانت تجسده أناشيد وأغنيات المعركة بأشعارها البسيطة العذبة وألحانها الهادئة المعبرة .

وبعد ثلاثة أيام من القتال المتواصل كان النوم على تلك الحال وكان الفن أيضا بهذه الصورة .

ذهبت فى الثامنة مساء ـ بعد نهار طويل من القتال ـ لكى أوقظ أحد الزملاء من جماعة الاشارة كى يتبادل الخدمة مع

زميل آخر أجهده العمل المتواصـل والسهر وحان الوقت كى يأخذ قسطا خفيفا من الراحة والخلود الى قليل من النوم يساعده على مواصلة الجهد فى الساعات القادمة التى قد لا يغمض لأحد جفن فيها . كنا قد تلقينا منذ قليل آمرا بالراحة المؤقتة .. ذهبت الى بطن التبه خلفنا كى أوقظ ذلك الزميل من جماعة الاشارة ، كشفت عن وجهـه الغطاء الصـوف ورحت بحنو بالغ أهش الكرى عنه حتى قـأم وجلس الى جانبى وهو يتمطى ويربط حـذاءه الميرى الذى كان قد خلعه أثنـاء النوم .. راح يربط الحذاء فى نشاط استعدادا لمهامه القتالية القادمة .. وكأنه نام ليلا كاملا ! رغم أن ما قطعـه فى النوم مجرد سـاعة واحـدة أو أكثر قليلا !

تأملته فى ابتسامة لها معنى كما تأملت فراشه المكون من مشمع وبطانيـة واحدة فوق الأرض الرملية وتذكرت أهـل قريتى . أخرج الزميـل من الجربندية كيسا من البسـكويت الميرى المملح وراح يقضم واحدة بسرعة فائقة ثم أشعل سيجارة وضعها بين شفتيه ثم راح يلف رباط الحذاء حول ساقيه بالطريقة العسكرية المـألوفة . كنت أتأمله فى كل فعل يأتيه وأنـا ممددا على حافـة الفراش ، ورطوبة الرمـال التى ذهبت عنها حرارة أشعة الشمس الغاربة ، تتسرب الى جسدى الملامس لها بجوار الفراش .. ابتسمت حينما ظهرت حافة القمر متصاعدة من خلف

التبة البعيدة فى نهاية الوادى أمام موقعنا ورحت أتابع صعوده وأشعته الخافتة التى بدأت تكشف عربات الحملة الرابضة فى بطن التبة البعيدة فبدت ظلالها كحيوانات خرافية فى تشكيلات مبهرة مع أفرع الشجيرات النحيلة ..

كان القطاع الذى نحتله هادئا تماما فى حين تأتينا أصوات طلقات بعيدة المدى من ناحية السويس ، حذر محبب يغلف المساء ووقع أقدام فوق الرمل تبتعد كأنها تغوص فى اللانهاية وخيالات متواشجة لا تفتأ تتلاعب فى كل اتجاه . كنت قد رحت فى النوم رغما عنى وتركنى زميل الاشارة نائما وراح فقد كان الجميع يعرفون أننى لم أنم لحظة واحدة منذ أول لحظة فى الحرب .. حينما أيقظنى الزميل سيد الدمرداش كانت الساعة تقترب من الواحدة والنصف بعد منتصف الليل وكنت قد استغرقت فى النوم بصورة لم أجربها من قبل ، وذهلت حينما أخبرنى سيد أن الكتيبة قد اشتبكت مع دبابات متقدمة للعدو أكثر من ساعتين ولم يشأ الرائد عبد العزيز أن يوقظنى حتى آخذ قسطا كافيا من الراحة ، انتفضت واقفا وأنا أبحث عن علبة السجائر فى جيب سترتى فى حين كان البدر يميل خلف التبة وراءنا فتستطيل ظلال مواسير المدافع الى الأمام . تأكدت فى هذه اللحظة أن النوم سلطان وأن الموت والنشور حق ، صوت الشيخ سيد مكاوى على الطبلة مع كلمات فؤاد حداد كان ينطلق

من راديو ترانزستور هنـاك فى احدى حفر المدافـع يعبر عن أشياء حقيقية نعيشها ويبعث فى النفوس دفئا صـوفيا رقيقا ، وقفت بهمة وانطلقت صوب خندق رئيس العمليات وأنـا أشعر أن المسألة هى الوطن •• والوطن عساكر وأرض تستعيد نبضها ، وكل واحد فينا كان يشـعر أنه هو الكل وهو الوطن فى آن واحد ، لذلك فان الضغائن الانسانية الصغيرة كانت غير محسوبة بل كانت غير موجودة أصلا •• والفردية كانت تولى الى مكان بعيد ، والمسـألة تصـير فى النهايـة هى الانسـان ــ الوطن أو الوطن ــ الانسان •

وكان الوطن واضحا غاية الوضوح ومتميز أقصى ما يكون التميز ومحددا كضوء الشمس ، وكنا نعرفه ونتعرف عليه وندرك أن حصاد كل شيء سـوف يرجع الينا ويعود على آهلنا وذوينا ومستقبل آمتنا القادم لأولادنا من بعد •

***

كان الصبية الصغار يتبادلون اختطاف الطواقى وأغطيـة الرأس ، وفى مرات عديدة كانت تسير شلتهم بعنجهية من قلب حارتنا ، وحارتنا هى مركز الاشعاع الحضـارى فى القرية •• ففيها تقع المدرسة الابتدائية القديمـة ، وحين كانت انتخابات « مجلس الأمة » وضع لنا أحد المرشحين حجر أساس المدرسـة

الجديدة وهى الآن بناء أنيق مسيج بالطوب المغطى بالأسمنت مكان أكوام السباخ التى انتهت الى الأبد من حارتنا .

كان ذلك يثير حسد أبناء الحارات المجاورة فيمرون من حارتنا معبرين عن موقفهم هذا بالعنجهية الريفية الساذجة أو يخطفون منا الطواقي وأغطية الرأس ويفرون سراعا ! مما كان يحتم علينا الذود عن الحارة وفناء مدرستها وملاعبها المتسعة ، فتنشب بيننا المعارك الصغيرة التى لا تنتهى كل ليلة ..

خطر ذلك كله فى بالى وأنا أتقدم ناحية خندق رئيس العمليات لأتسلم مهام عملي القتالية من جديد بعد أن نلت قسطا من النوم لم أكن أتوقعه أبدا ..

كنا قد اعتدنا الحرب .. أصبح لها نظامها المألوف يوميا وحاجاتها المعتادة فى نفوسنا .. لقد أصبحت بالنسبة لنا الآن حياة كاملة بكل معالمها ومتطلباتها النفسية والمادية ، وصار التعامل مع مفرداتها يتميز بالسلاسة والحرية كما صرنا نحن أقل رهبة وأكثر رضوخا للواقع ، وصارت الامدادات تأتينا بانتظام ووفرة كما أصبح أمامنا فرص للاستحمام وتناول الخضروات الطازجة والفواكه التى تأتى مع التعيين القتالى فتخفف عنا عناء تلك الأيام التى ألهبت أمعاءنا فيها المعلبات وقطع البسكويت الملح .. كذلك كانت تأتينا هدايا كثيرة من الشعب المترقب

خطونا هناك ، من خلف خطوط القتال فتغمرنا مشاعر الانتماء والارتباط المقدس بالأرض الطيبة . وكانت الحرب لا تتوقف لحظة .. وتقدمنا مسافة أكبر داخل سيناء .

يا وجه من أحببت ـ شوطا ـ فى الخنادق

تـارة ..

فوق المعابر .. والرياح

لو كان حبى معصيه

ما كنت أدمنت السباحة

بين قلبى

والجراح .

حين وصلنا الى الموقع الجديد والمحدد على الخريطة بالضبط ، صدرت الينا الأوامر فجأة بالتقدم لعمل «مفرزة» على موقع معاد فى مقدمة الفرقة السابعة . أحسسنا بخطورة الموقف وعظم المسئولية ، فكتيبتنا من قوات المدفعية الثقيلة عيار ١٠٠ مم ، والمدافع يطلق عليها عادة أنها عمياء ، حيث يتحتم الضرب بها على مسافات بعيدة بشكل غير مباشر فى العادة يصل أحيانا الى مسافة ٢٠ كم ، ويتم توجيه الضرب وتصحيحه على الأهداف المعادية بواسطة مراكز الملاحظة فى الأمام . لكن « المفرزة » مهمة قتالية تعنى أننا سوف نتعامل وجها لوجه مع

قوات العـدو من الدبابات والمجنزرات وشتان ما بين حـركة الدبابة وقدرتها الذاتية على التقدم والتقهقر والمناورة وبين قدرة المدافع فى كتيبتنا والتى تتحرك أولا بقوة عضـلات الجنود فى توجيه مواسيرها للضرب يمينا أو شمالا فاذا احتاج الأمر الى التقدم أو التقهقر لابد من جرار باطارات ضخمـة أو بجنزير لاتمام هـذا الأمر •• وكل ذلك يجعل التفوق بلا ريب للدبابات أو المجنزرات الآلية •• ومن هنا كان الاحساس عميقا بخطورة الموقف وعظم المسئولية فى هذه المهمة التى لابد لنا أن تتمها كما صدرت الينا بها الأوامر !

حقا ان الحرب خدعة لكنها فى ذات الوقت يجب أن تقوم على التخطيط السـليم والأسـتخدام الأمثـل لكل الظروف والملابسات والطاقات المتاحة وكل الأسلحـة المتكافئة •• ذلك ما كان يدور فى ذهنى وأظنـه كان يدور فى أذهـان الجميع ، فالخوف شعور طبيعى والموت غير مرغوب فيه حتى لو كان فى ميدان القتال وبالذات اذا كانت المسـألة تقوم على ركائز غير مضمونة •• ان الاستشهاد عمل بطولى خارق وتضحية يجب أن يغلفها المثل الأعلى •

المهم أن الكتيبة بمدافعها الثمانية عشرة وجراراتها الضخمة وحملتها اصطفت فى وضـع التقدم •• صعدت أنا الى أعلى العربة المجهزة فى المكان المخصص للتأشير المنظور حتى يمكننى

تلقى الأوامر من قيادة الكتيبة عن طريق حركة البيارق الملونة الصغيرة وتبليغها الى باقى القول خلفنا لكى تستجيب لمـا تعنيه حركة تلك البيارق المتفق عليها من التقدم أو التقهقر أو الانتشار أو اطلاق النار أو غير ذلك من المهـام المعروفة لنا جميعا والتى طالمـا تم التدريب عليها فى مشاريع الخطة ٢٠٠ التى نقوم الآن بتنفيذها ميدانيـا فى المعـركة من يوم السـادس من أكتوبر حتى الآن .

وما لبثنا تتحرك فى الوادى وغبـار المدافـع والعربـات وأصوات المكن يملأ المكان حتى صدرت الينا الأوامر مرة أخرى بالاحتلال فى أماكننا والاستعداد فورا للاشتباك مع العدو !

زالت الرهبة والخوف وكل التوقعـات التى كانت تسيطر علينا من أثر « المفرزة » .. هبط الجنود بسرعة البرق وراحت كل سرية من السرايا الثلاث تضبط محـاور المدافع باتجـاه الأهداف التى بلغتها لنا القيادة ، فى دقائق معدودة كانت المدافع جاهـزة للضرب وعلى استعداد فورى للتعامل مع الأهـداف المعـادية !

من أى مصدر أسطورى تأتى كل هذه القدرة على الفعل والانجاز الفورى ؟ ! كيف يقوم هـؤلاء الجنود من الفلاحين والعمال والمثقفين والمؤهلات المتوسطة والعليا والضباط فى لمح

البصر بكل هذه الأعمال الشاقة والأعمـــال الذهنية الدقيقة ؟ ! ثم يصيبون الهدف بالفعل !

استمر الاشتباك مع الأهــداف المعادية آكثر من ساعتين كاملتين والضرب على مسافــة ١٢ كم وكان أبواب الجحيم قد فتحت مصاريعها .. المدافع تدوى والانفجارات تتوالى والقيادة تبلغ الأوامر الجديدة بالأهــداف والمدافع ترد بشـــكل فورى لا يتوقف .. والدانة التى انفجرت خلفنـــا فى الحملة لم تصب شيئا واستطاع الجنود التغلب على النيران التى اشتعلت هنـــاك فى شـــباك التمويه الخاصـــة بالحمـــلة قرب المطبخ ولم يصب أحد .. يا ألله .. انها نهاية العالم بلاشك .. فمتى يتوقف هذا الجحيم ؟ .. الوقت لا وجود له .. والزمن ممسوح من عقارب الساعات وكل شىء يتم بسرعة جهنمية وعلى أكمل وجه ! وسط كل مظـــاهر العنف والصخب التى لا تتوقف برهـــة واحدة .. والكل تغمره فرحة غريبة وقد علقت على شفتى كل منهم ابتسامة حية ، واتقدت عيون الجميع بنشوة فائقة وكأن الدم يهتز بسعادة شيطانية لا توصف فى خلية النحل هـــذه التى يقوم كل واحد فيها بدوره المحدد بالضبط وعلى أكمل وجه !!

حين خطر فى بالى كيف يعمل هؤلاء الناس وأنـــا منهم بهذه الصورة ؟ ! لم أجد اجابة حقيقية سوى أن العمل الجماعى من أجل هـــدف محدد لابد وأن تكون له هـــذه الفرحة حتى

لو كان ذلك فى خضم القتال ومن أجل قيمة حربية غير شخصية ، ان الفعل الايجابى الجماعى القادر على تحقيق الغاية هو المسئول عن هذه الفرحة وتلك القدرة على الانجاز .. بلا شك .

ثم صدرت الينا الأوامر بالراحة وتناوبت الكتيبة الأخرى من اللـواء ٤٩ م.د التعـامل مع ما تبقى من قـوات العـدو المتراجعة .. فرحنا نعمل على اعادة دشم المدافع وخنادق الدفاع الشخصى الى حالتها الأولى قبل الاشتباك وتمتين جوانب حفر الذخيرة وكل ما يحمينا من هجوم الطيران اذا ما حدث ، ذلك لأن الراحة لا تعنى الكسل أو الاستنامة لمـا تم انجـازه بل تعنى بالضبط الاستعداد لمرحـلة جديدة وانجاز مهـام قادمة بلا ريب .. والتغلب على صعاب نتوقعها أو لا نتوقعها من طيران العدو .. فالطيران هو أخطر الأسلحة على الاطلاق ضربا لفاعلية مدفعية الميدان .

فى هذه اللحظات كنا نعمل بهدوء وسعادة باردة وأيضا كنا نشرب الشاى الذى نعده بسرعة فى علب الصفيح المتخلفة عن الأطعمة المحفوظة .. كما كنا ندخن بلا توقف . وكان العسكرى اسماعيل فى كل هجمة للطيران المعادى يستلقى على ظهره ويرفس برجليه فى الهواء ويقهقه بنبرة متميزة حلوة اذ تنطلق الصـواريخ من طراز « سام » ملاحقة الطائرات فلا تتركها صعودا وهبوطا حتى تصيبها .. كما أن كرنفال المدفعية المضادة للطائرات كانت

تصنع مع الصواريخ عرسا ناريا يدفع فى النفوس بهجة من نوع غريب ! ونصبح نحن قوات مدفعية الميدان وسط هـذا العرس النارى الجميل متفرجين رغم أنوفنا .. وترى المدافع فى دشمها وقد هبطت المواسير بمحـاذاة الأرض وبرزت فوهاتها خارج شباك التمويه وكأن كل موقع منها جمل برك على سطح الأرض واستسلم للنوم ممددا رقبته وواضعا خده على الرمـال بعد رحلة الشتاء أو رحلة الصيف !

وتكون أمام العسكرى اسماعيل فرصة نادرة للافصـاح عن طاقاته التمثيلية والبهلوانية المختزنة فيروح يشاكس كل فرد من أفراد جمـاعة رئيس العمليات ، كمـا يروح يعلق على فرار الطائرات أمام مطاردة الصواريخ لها بعبارات لاذعة وجمل عارية من الحياء !

كل ذلك .. كان يذكرنى بتلك الحروب الصغيرة التى كنا نلعبها فى قريتنا فى الزمن البرىء ، نتقاذف فيها أكياس التراب وأعواد الحطب !

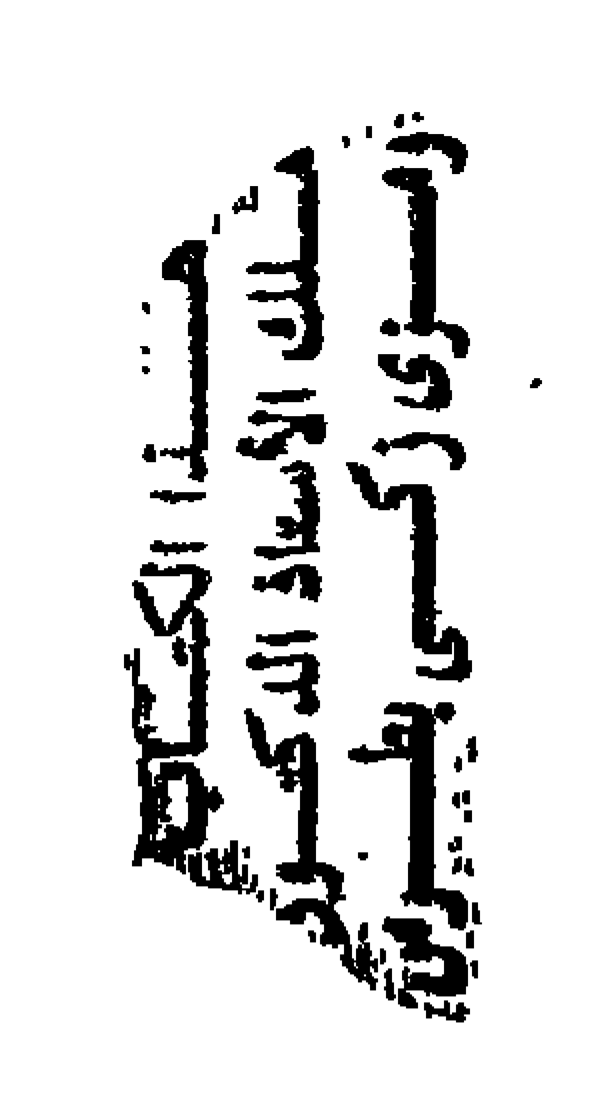
تغيرى يا شارة الوجه القديم
كـونى لنـا
فراشـة
أو نحلة شغاله
لا ترقصى فى السر .. لا تضيعى
يا قوتـة الجنود
وغـيرى وقـع الخطى

أعطيك شـارتى وسـترتى
أعطيك ما قطفت من سبائك البارود .

وكنت أفكر فى هؤلاء الرجال من أبناء مصر الذين ينجزون كل شيء بمهارة وقدرة غير محدودة وطاقات متفجرة خلاقة .. كنت أفكر فيهم وأتساءل : أليس هؤلاء هم أنفسهم أبناء الدلتا والصعيد من العمال والفلاحين والموظفين فى كل مواقع العمل .. داخل المدن والقرى ؟ ! فلماذا لا يتم كل شيء فى بلدنا بهـذه الأيدى الصانعـة القـادرة ؟ ! وبهـذا الحجم من المسـئولية المسئولة ! ؟ ولمـاذا لم تبدأ الثورة فى بلدنا بمثل هذا العمل الايجابى الجبار الذى يمتلك مشاعر الناس وعقولهم ويسيطر على قدرتهم الفاعلة ويفجر فيهم كل هـذا الحماس ؟ ! لمـاذا نصطدم هناك بمظاهر السلبية والتراخى والبيروقراطية والانتهازية والنفعية ، وغيرها من المصطلحات الرديئة ؟ ! وهل يمكن لهذه الحرب أن تغير هـذا الواقع هناك كما غيرته هنا ؟ ربما .. ولعل .. وكل أدوات التمنى كانت تتجسد فى مخيلتى وأنـا أنظر الى أكثر من عشرين سنة الى الوراء والتفاؤل بحجم حبة صغيرة من العرق كانت فى هـذه اللحظة تتساقط فوق زجاج نظارتى فتغيم الرؤية وأروح أنظفها من جديد حتى يتضح كل شيء .

ليس كثيرا أن تخطىء أمة عشرين مرة .. ولكن الكثير فعلا ألا تتعلم مرة واحدة ..

وفى غد يعود « أوديسيوس » من طوافه المخيف .



صناعة الحياة ..

كانت أخبار موقع كبريت تأتينا كل يوم فتنسينا حاجاتنا اليومية المعتادة ، تنسينا حاجه الطعام والشراب الذي لا نجد منه سوى ما يسد الرمق ! ، وكانت تلك الاخبار القادمة الينا من موقع كبريت تجعلنا نقف دائما كما كنا في زمن القتال الأول •• نفس الحمية ونفس اليقظة •• بل ان الضرورة وطبيعة الظرف الذي نعيشه كانت تحتم علينا قدرا أكبر من الحمية واليقظة برغم كل الملابسات • لم ينقص منا الطعام بل زادنا تمسكا بالأرض وتشبثا بالوطن ، لم تؤثر فينا شحة المياه بل دفعتنا الى مزيد من الايجابية تجاه السلاح وبازاء الفعل الواضح من أجل البقاء والحفاظ على كل شبر حررناه من أرض سيناء •

كانت بطولات موقع كبريت بمثابة الزاد اليومي الذي يشبع فينا — نحن « قوات بدر » جنوب البحيرات في ضفة الشرق — كل الرغبات ويعلو بروحنا المعنوية فوق كل الحاجات اليومية المعتادة • لقد آكدت لنا مواقف الرجال أن الانسان المصرى أكبر من أى أزمة عابرة وأنه يعرف قيمة النصر الذى حققته قواتنا طوال شهر من القتال الضارى المتصل فصنعت به هزة حقيقية في كيان الكون وليس في اسرائيل وحدها •• بل أن قتالنا هذا كشف لنا حقيقة آن اسرائيل فى ضميرنا نحن لن

تستطيع بعد اليوم أن تستعيد رهبتها التى كانت ولا أسطورتها التى حطمناها بأنفسنا ودسنا فوق رأسها بأقدامنا على طول خط بارليف المنهار •

واعتدنا [illegible]ع والعطش بتفوق رجولى نادر •• كانت قطعة البسكويتِ الميرى المملحة وكوب صغير من المـــاء يكفى الواحد منا طوال أربع وعشرين ساعة دون مبالغـــة رغم كل قوانين الفسيولوجيـــا والطمع الغريزى الكامن فى كل انسان ! •

فى أول الحرب كان ذلك البسكويت له طعم مالح غير محبب وكنا لا نتنـــاول منه الا أقل القليل بجوار الأرز أو المكرونـــة أو الخضروات المعلبة وكنا نتخلص من عبواته أولا بأول فى كل تحرك نترك فيه موقعا الى موقـــع آخر •• ، ولكننا فى هـــذه الظروف الجديدة وتحت وطـــأة الحصار المفروض علينـــا كان القرش الأبيض الذى ينفع فى اليوم الأسود مثلا حقيقيا نابعا من صميم الوجدان الشعبى فرحنا نبحث فى المواقع القديمـــة عن تلك العبوات التى تركناها هناك ذات يوم خاصة بعد أن شـــح الامداد وصارت القطعة الواحدة تمثل كنزا حقيقيا فما بالك بعبوة أو صندوق كامل ؟ !

ظل الحال على هـــذا النحو حتى بدأت محادثات الكيلو

(١٠١) •• ، وتدخلت قوات الطوارىء لامدادنا فى الضفة الشرقية ببعض الامدادات ••

فى البداية كانت المسألة لا تثير الاهتمام ، حين سألنى الرائد عبد العزيز : ماذا نفعل ؟ قلت ــ وأنا أضغط على مخارج الحروف ــ : نصنع منه كنافة •• وضحكنا ، لكن الذى حدث هو أن كمية أخرى ضعف الأولى وردت الينا فى اليوم التالى •• وهكذا أصبحنا نمتلك ثلاثة أجولة من الدقيق الأبيض الفاخر •• ، ويبدو أن المسألة كانت مثيرة للاهتمام أكثر مما تصورنا • نظر الى الرائد عبد العزيز وابتسم ابتسامة ذات مغزى وكأنه يقول لى : وماذا بعد الكنافة يا شاويش أحمد ؟ لكننى قلت له على الفور : المسألة بسيطة وحلها هو توزيع هذا الدقيق كله على أطقم المدافع وكل جماعات الكتيبة • قال : وماذا يصنعون به ؟ ! قلت : المهم هو توزيع العبء على الجميع حتى لا تتكدس كميات أخرى قد تأتى ويتعرض الدقيق للتلف ، فهو على أى حال خسارة حتى لو كنا لا ندرى حتى الآن ماذا نصنع به ! ولا ندرى حتى لماذا ترسله لنا القيادة عبر قوات الطوارىء ضمن ما ترسل من أشياء أخرى ذات قيمة ونفع مباشر مثل الخضروات الطازجة والفاكهة التى كنا فى أمس الحاجة اليها •• تم توزيع الدقيق على الجماعات المختلفة وعلى أطقم المدافع فى مساء أحد الأيام المشمسة من آخر شهر

ديسمبر ١٩٧٣ .. الجو كان صحوا والشمس تتدحرج حثيثا على لوحة الغروب مخلفة لسعة باردة فى رمل الصحراء مع انحسار الحرارة المباشرة عنه تلك الراحلة مع أشعة الشمس نحو الغروب .

وبرغم التهكم الغير معلن الذى كان يرتسم على الوجوه حين توزيع الدقيق الا أننا شعرنا بالراحة بعد ما فرغنا من توزيعه وكأنه كابوس وانزاح عنا !

لكن المدهش أن هذه الأوجه الساخرة وبعد حوالى نصف ساعة فقط من توزيع الدقيق كانت تعمل فى صمت خلالها لكى تفوح رائحة الخبز الطازج من كل أركان حفر المدافع وخنادق جماعات الاشارة والمعاونين والحملة وكل الجماعات المساعدة الأخرى .. وكانت صيحات الله أكبر تتردد فى موقع الكتيبة تذكرنا بيوم العبور العظيم ! كيف حدث ذلك ؟ ! هذا هو قانون الحياة وصناعة الحياة لدى الانسان المصرى القادر دوما على قهر المستحيل .

من يومها أصبحنا ننتظر المزيد من عبوات الدقيق ، وتفنن كل طاقم فى صناعة أصناف متعددة من الخبز والفطير والرقاق بل ووصل الحال بالفعل الى مستوى الكنافة والحلويات تلك التى اعتبرناها مزحة مستحيلة التحقق مع وصول أول عبوة من

الدقيق الينا • وتعجبنا كيف ظل الجوال الأول ملقى بجانب العربة المجهزة أكثر من خمسة أيام دون أن نلتفت اليه • وتعرفنا فى هذه الأثناء على مناطق بداخلنا كانت مهملة ربما طوال العمر وليس فقط فى هذه الفترة الزمنية القصيرة التى مضت من الحصار •• مناطق خاصة بالاكتشاف والقدرة على توظيف العناصر الطبيعية والبشرية توظيفا يتناسب مع المواقف الجديدة الطارئة التى هى من صنع الحياة ومن صنع الحرب أيضا ! •

لم تدهشنى قدرة الانسان فى مثل هذه الظروف على احتواء اللحظة والتفوق على كل الصعوبات والظروف المعقدة فلطالما كان المصرى ندا لكل الظروف وقادرا على حل رموزها الكونية لصالحه •

وحلت مشكلة المياه اللازمة للعجين أو الطبيخ بأن خلط الجنود كمية من المياه العذبة اقتطعوها من مخصصات الشرب الشحيحة بكمية أخرى من مياه القناة المالحة بحيث لا تؤثر ملوحة المياه على الطعم المستساغ للخبز أو الخضر المطبوخة •

منذ ذلك اليوم أصبحنا لا نكف عن اضافة المزيد من التحسينات • وفى يوم صار لدينا فرن صغير وكميات من الأخشاب التى قطعناها من صناديق الذخيرة الفارغة كما صار لدينا اناء للعجين ومغرفة وكانون وغير ذلك من الأدات البدائية

ذات القدرة الفائقة على أداء رسالتها والقيام بواجبها العملى مثل أى تكنولوجيا أخرى ، واستخدمنا بعض الأدوات الحربيــة فى تجهيز الخبز •• لكن المفاجــأة الكبرى كانت حينما وجــدنا العجين منتفشا فى الصباح بشكل يثير الشك ويدفع الى القلق ! خبطنا عليه بالكف فأصدر صوتا مكتوما ! ما هــذا ؟ ! نظر الى العسكرى اسماعيل وقال : ولا يهمك دى حاجة عادية هيا الى الخبيز •• فعلا •• هيا الى الخبيز •• فالحاجة الى الخبز لا تترك فرصــة للتراجع •• بدأنا على الفور فى تجهيز الفرن ووضــع الأقراص الطرية فوق الصاج المحمى ، ثم كانت المفاجأة المذهلة حينما شاهدنا الأرغفة تنتفخ وتحمر وتأخذ شــكل الأرغفــة المــألوفة لنا هناك فى كل حارة وفى كل قرية ! هنالك انتابت العسكرى اسماعيل لوثة هستيرية ونشوة بهلوانية جعلته يطير فى الهواء ويأتى بحركات مدهشــة وهو يزعق على كل الجيران كى يأتوا فيشاهــدوا معجزته التى فعلها من ورائنــا •• كان اسماعيل قد وضع فى العجين دون علمنا قرصا من أقراص الخميرة التى أتى بها من العيادة الطبية •• خطرت له الفكرة ونفذها فى صمت دون علمنا حتى لا نمنعه من التجريب •• وها هو الآن يعلن للعالم أجمع : لقد وجدتها !

كان نفس الشىء يحدث فى كتائب الهاون والمدرعات وغيرها

من الأسلحة وكأن عقلا جماعيا يفكر ويكتشف ويصنع نفس الشيء فى نفس الزمن .. انها الحاجة .

وكعادة البشر فى صنع الأحداث والأخبار والأوهام كانت تتسرب الينا كثير من الحكايات .. وكنا نسمع أن الأفراد فى قيادة الجيش يحظون ببعض التعيينات الخاصة من الديوك الرومى والتفاح ! ليس فقط ذلك ولكنهم ـ ونحن لا نجد ما يبل ريقنا من مياه الشرب ـ يستحمون بالماء الساخن ! لكن ذلك كله لم يجعلنا ننسى أن هناك مطلبا أساسيا ومهمة جماعية واحدة تستلزم منا تلك الوقفة على مستوى الشرف العسكرى والشرف الوطنى الذى هو أهل لهذا الصمود الجماعى النادر وتلك الوقفة البطولية العظيمة رغم كل ما هو مفروض علينا .

لقد كنا نصنع السلام لأنفسنا وسط أقسى الظروف وأخطر مناخ يمكن أن يتعرض له جندى فى ميدان القتال .

سيناء صارت حول قلبى وردة

صارت سياجا حول قلبى

فى زمان الحرب

اول طلقة حملت ازاقة قريتى

حملتك قافلة وخبزا ..

(حين حاصرنا العــدو
رأيت بين تحاور البارود
والنبض المكابر .. مزنــة
مدت جناحيها ـ بلا صوت ـ وحطت بيضها
الموال والترع البعيدة والقرى
وأنــا .. وأنت
تأبطت ما نبت العرس الجرىء)
ويجىء وجهك ..
حين كان الجوع يطلع فى أصابعنا
يجىء !

ليلة وليلة ..

فى الليل تستيقظ كل الحواس ، تصير كل خلية فى الجسم رادارا غاية فى الاستشعار والانتباه • ويكون الليل سكنا ، ويكون مصيدة لا تكف • العمليات الحربية التى تتميز بها حرب النهار تتوقف تقريبا الا من طلقات الازعاج المتبادلة •• ولكن كل الاحتمالات تظل قائمة وتظل العمليات العسكرية التى تميز حرب الليل على درجة عالية من السخونة : وحدات الاستطلاع وبث الالغام والامداد والقناصة والتسلل وغيرها •

وفى الليل تكون أمام المرء منا فرصة للتأمل والتساؤل ومونولوج داخلى لا يتوقف برهة لكنه يظل مثيرا لكل مساحات الدهشة والغرابة واستطلاع نفسى وشخصى وتسلل الى أبعد أغوار النفس يكون ••

فى اى ناحية يضىء دمى
فى اى ناحية يضىء •• ؟
اهــواك ••
يجرفنى زمــان الحرب
ينقشنى على جسر الولادة ••

كانت معى رواية « الجريمة والعقاب » والعدد الأخير من

مجلة الطليعة (أكتوبر ١٩٧٣) أشتريتهـا من محطـة أتوبيس الزقازيق وأنـا فى طريق الوحدة يوم الثالث من أكتوبر ، وكان معى أيضـا ديوان « رسـوم على قشرة الليـل » للشـاعر محمد عفيفى مطر .

اصطحبت معى هـذه المطبوعات لكى تعاوننى على قطع الوقت اذ كنت أظنه سوف يكون مملا طوال الأيام التى سأقضيها فى الوحدة فى فترة الاستدعاء بلا عمل والذى كنت أتصـور أنه قد يمتد الى أسبوعين أو نحو ذلك ثم أعود للحياة المدنية من جديد .. فما كان يبدو لنا بشكل محقق هو استمرار حـالة اللاحرب واللاسلم وما عملية الاستدعاء هـذه بعد أقل من ثلاثة أشهر من تسريحنا الا مجرد « تهويشة » تساعد فى عملية الضغط لقبول الحل السلمى لا أكثر ولا أقل ! .

حينما دخـل بنا الأوتوبيس طريـق السـويس قادما من الاسماعيلية شعرت بشىء مختلف وبجغرافية الأرض تشى بأشياء مبهمة وتوحى بدلالات غير ما كنت أظن .. ورغم ذلك تصورت ذلك أيضا جزءا من عملية التهويش التى تجرى أو مجرد نظرة شاعر يرى فى الأشياء دائما ما ليس واقعيا واستسلمت لذكريات السنوات الخمس التى قضيتها ذاهبا غاديا على هـذه الطرق والمدقات والمواقع المختلفة دون حرب ودون سلام !

الأرض بما تحمل تمر كشريط سينمائى من نافذة العربة والذهـن شـارد والنفس معبـأة بخليط متنـافر من المشـاعر والذكريات •

ظلت معى تلك المطبوعات طوال أيام الحرب حتى هـذه الليلة •• التى كنت أشعر فيها بحنين جارف للقراءة •• لشكل الحروف ورائحة الأوراق المطبوعة •• ، فبعد أيام مضنية من المعارك والانهماك المـادى فى القتال كنت أشعر بتلك الوحشـة الروحية وهـذا الفراغ الوجدانى اللذيذ • لم يكن بالخنـدق بصيص من الضوء الا غلالات باهتة من بقايا هاربة للقمر الذى يختفى خلف التباب البعيدة ، ولم يكن هنـاك أى أداة للضـوء سوى « البلادوس » الذى نستعمله ليلا فى عملية ادارة النيران فوق الخرائط والمعدات •

الجو كان قارس البرودة فى النصف الأخير من الليل •• ، أخرجت البلادوس فى حرص ووضعت الأسـلاك فى مكانهـا من البطاريـة •• ضغطت على الذر فى حذر وأنـا أقلل من دائرة الضوء الذى انطلق من الكشاف باهتا ومحدودا •• تسللت يدى داخل المخلاة الصغيرة ، أمسكت بالكتاب •• سرت فى جسـدى قشعريرة حقيقية ورهبة لم أعانيها من قبل ، أنتزعت الكتاب من بين المهمات المكدسة ، فتحت صفحة الغلاف تحت دائرة الضوء المحـدودة •• برزت الكلمـات والفواصـل والجمل ثم راحت

تتراقص وتتداخل وتصــدر أصواتا كونية وهمســات لا حدود لها..ماجت فى نفسى ، وكيانى يختلج بآلاف المشاعر والانفعالات ثم اختنقت بالذكريات ، آلاف الأســماء والأماكن والأصــدقاء والقضــايا :

الحرب والسلام ، الأدب والفن ، الجرص .. الشهداء .. اذاعتنا .. أمى .. اخوتى .. مكتبتى الصغيرة ونادى الأدب بقصر ثقافة المحلة الكبرى .. الشعر .. آه الشعر .. برنامج « بريد المستمعين » وصوت بهاء طاهر ..

آه يا ليال لا يملك فيها المرء غير الحنين والمسافات بعيدة وشاســعة !

واخط اســمى .. فاكتبى

هذا الطريق الوعر يسقط فى دمى

.. كالمــوت !

كالمــوت يسقط فى دمى

كالشمس يطلع فى دمى

ودمى .. نهــار ..

اشتهى حرفــا صغيرا

فارحلى فى الليل يا شمسا تؤرقنى

اشتدت الحركة خارج الخندق الذى مازلت أضطجع فيه.. الفجر أزف تقريبا ، وصوت الحركة فى الخارج يشى باستعداد الجمع لجولة جديدة من المواجهة التى لا يعلم مداها الا الله .. ما كنت قد أكملت قراءة صفحة واحدة ، ولم يعلق فى ذهنى قط حرف واحد ! خرجت الى سطح الأرض بجميع مهمات القتال والقصيدة تشاغلنى :

تعــــالى ...

ان اســـمك وردة

تصـــل الفصول الأربعـــة

وحروفه .. وطن .. وموال ..

يلون نهر عمرى بالسفائن

والقـــلوع المشرعـــة .

وفى ليله عيد الأضحى .. بعد نحو ثلاثة أشـــهر كنا قد أمضينا فى الحصار نحو ما يقرب من شهرين ، وكنا نبحث داخلنا مازلنا عن تلك الامكانات الكامنة ! وتحولت أسلاك التليفونات المدمرة الى أوتار مشـــدودة فوق الزمزميـــات أو أجزاء طابات الصـــواريخ لتتحول الى ما يشـــبه آلة السمسمية المعروفـــة فى سواحلنا المصرية .. كما أنجز أفراد الحملة ما يشبه الصاجات والشخاليل من الخراطيش النحاسية المدمرة ، وتوفر لدينـــا فى

أيام قليلة العديد من النايات والسلاميات من مواسير العربات المضروبة • باختصار صار لدينا عدد من الأدوات والآلات الموسيقية ، ويحق لنا أن نسميها آلات فعلا • والفن ضرورة •• وكان الانسان فى البدء بلا تراث وبلا تاريخ •• وفى ظل هذه الامكانات الفنية رفيعة المستوى تحول الموقع الى عيد حقيقى ، عيد بالألحان الشجية والأصوات الخشنة المليئة بالحنين ، وعيد بالعزف المتواصل والكلمات الصامدة •• بل هو عيد بالقدرة على الاستمرار والتجاوز والقدرة على التجدد وامتلاك الأدوات •

وكانت ليلة من ليالى الانتماء للتراث الشعبى الخلاق وليلة من ليالى التعرف على الوجه الحقيقى للشعب المصرى وأبنائه الصانعين المهرة والفنانين القادرين والبناة المبدعين الذين انكسرت بغضاء الحرب ومشاحنات السلام تحت ظلال نفوسهم الكبيرة وقلوبهم التاريخية المشحونة انسانية ونبلا آدميا فى غاية البهاء •

وكانت تلك الليلة من ليالى السماحة بازاء المواسم والأعياد التى تشكل خريطة الوجه الثقافى لأقدم أمة على ظهر الأرض •

وتظل للرموز قدسيتها وللدلالات ما تستأهله من التقدير والاحترام •

ويظل للانسان وجوده الحى القادر دوما على ازاحة كل

مخلفات الزمن والكشف عن لوحة الحضور والخصب والحكمـة التاريخيـة •

وكما صنعنا آلات العزف والغنـاء •• ذات يوم صنعنـا فناطيس للمياه المـالحة لكى نحولها الى ميـاه عذبـة بأبسط الوسائل وبأقل النظريات العلمية تعقيدا • وينتصر الانسـان ، وتنتفى رواسب الحرب مهما طال أمدها ومهما اشـتدت أزماتها وتعقدت •

يتخاصر الدم والبلاد ..

هـــذا دمى ..
وطـن
وتاريخ
أقلبـه
فيقفز من دمى .. فرح
يضىء
يتأثر الصوت المضيع فى رمال العمر
.. فاقتربى
وهـزى غصـنه
يأتى .. اليـك .
يتساقط الورق الشتائى الردىء
ويصير عريانا .. بلا أسم
فخطى أحرفا أخرى على صفحاته
وتعلمى فيه الكتابه .
خطى زمانا للتمرد .. اننى
اهـوى
شططا غضبى
اذا هبت خماسين التآكل
والرتابـه

أرغولك المصرى
ينزف جنــة
فتعلمى لغتى
تعالى .. (فى زمان الحرب
لم تمطر سحاباتى
ســوى للمعدمين
سيناء صارت حول قلبى
وردة
صــارت ســياجا
حــول قــلبى)
فى زمــان الحرب
أول طلقــة
حملت ازقــة قريتى
حملتــك قافــلة
.. وخبزا
(حين حاصرنا العدو
رأيت بين تحاور البارود
والنبض المكــابر
مزنــة
مدت جناحيها ــ بلا صوت ــ
وحطت بيضهــا :
الموال والترع البعيدة والقرى

وانـا .. وانت ..
تابطت
ما نبت العرس الجرىء .)
ويجىء وجهـك
حين كان الجـوع
يطلع فى اصابعنـا
.. يجىء
(هـل كان وجهـك
غيمـــة
عبرت الينـا
بالموائـد ؟
جـاءت الينـا ..
حين كان الجوع يطلع فى اصابعنا
حروفـا
وقصائد ؟)
رحـلت مواعيـدى
على شـفتيك .. اضحك
والتـلاوة
موعـد
ودمى .. يضىء ..
فى اى ناحية يضىء دمى ؟
فى اى ناحية .. يضىء ؟

أهـــواك
يجرفنى زمـــان الحرب
ينفشنى على جسر الولاده
أهـــواك أكثر
تشعلين خرائط الصحف المعاده
وتطـــير بى فرس القتـــال
يتخـــاصر الدم والبـــلاد
ويرنمى ظل الوطن
وأخـــط اســـمى
فاكتبى
هذا الطريق الوعر
يســـقط فى دمى
كالمـــوت !
كالموت .. يسقط فى دمى
كالشمس يطلع فى دمى
ودمى .. نهـــار ...
اشـــتهى
حرفـــا
صـــغيرا
فارحلى ــ فى الليل ــ يا شمسا
تؤرقنى
تبددنى .. وتنشر خطوتى

انفرطى
على كفى .. تمرا
للمساكين
انتظار المعدمين .. على دمى ،
عينـاك قـافلتى
وخبزى
ومخاضى
للمينى ساعة من شاطىء الغرق
المـلون
للمينى
عانقينى
وانشرى
لغتى
تعالى .. ان اسمك وردة
تصل الفصول الأربعة
وحروفه ...
وطـن ...
وموال ...
يلون نهر عمرى
بالسفائن
والقـلوع
المشرعه .

وكنا على حافة الليل ...

تفجرت الحركة الفنية فى تلقائية عظيمة .. وتألق الجنود الفنانون فى كل الوحـــدات من المشاة والاستطلاع والمدفعيـــة ووحدات الدفـــاع الجوى والمدرعات وكافة الأسلحة الأخرى بدرجة أدهشت الجميع .. تألقوا بآلاتهم الشعبية البسيطة المتقنة الصنع والتى كشفت عن خبرات يدوية ماهرة لهؤلاء النـــاس البسطاء .

تفجرت الحركة الفنية وكأنها كانت على موعد مع العيد ، وكأنها كانت مختزنة كذلك اليوم فى كافة الصـــدور ! معبـــأة بكل هذا الكم من الأشعار والأغانى والاسكتشات والألحان فى عفوية وتلقائية مرهفة .. تلبى حاجة وجدانيـــة جماعية ملحـــه ومطلبـــا انسانيا عاطفيـــا لكل جنود الجيش الثالث من قوات « بدر » الموجودين فى الضفة الشرقية من القناة والذين تفصلهم عن القيادة فى الضفة الغربية قوات العدو فى ذلك الجيب الذى صنعته عملية « الدفرسوار » !

وانتهت الليلة .. ومضى العيد .. ، ورأى قادة التوجيه المعنوى ضرورة تنظيم تلك الحركة التلقائية وضبط ايقاعها ! فى شكل مسابقات ومنافسات بين الوحـــدات تشغل وقت الفراغ

وتسلي القوات وتشغل بالهم بشيء يزيل عنا غربة النفس ويقضي على رتابة الوقت وملل الانتظار ويخلق فينا جوا جديدا للتحقق الفردي والجماعي •

واشتعلت السهرات الفنية من جديد في كل الوحدات بحضور قادة الكتائب وقادة الفرقة السابعة التي كان على رأسها الفريق أحمد بدوي بحضوره الساطع وقدرته على التسلل الى قلوب الجميع وكسب احترامهم •

تبارت الفرق الفنية في منافسات شريفة برزت من خلالها طاقات ومواهب ربما للمرة الأولى في حياة أصحابها وربما للمرة الأخيرة أيضا ! •• كانت الأغاني والأشعار والكلمات وحتى النكات والمنولوجات والاسكتشات كلها تؤكد الاحساس الجماعي بالبطولة والصمود وقهر المستحيل •• لم يكن هناك موال واحد للآسي أو الغربة أو القنوط من الواقع المر •• لقد كشفت الأعمال الفنية عن قيم حقيقية متغلغلة في أعمق أعماق كل جندي بشكل ايجابي وخصصت الجوائز ، وما أطرف أن تكون الجائزة الأولى علبة تعيين أو كمية من المياه زيادة عن المقرر اليومي المعتاد •• وما أثمنها من جائزة في مثل الظرف الذي نعيشه بالفعل •• ولا يشعر بقيمة ذلك الا من عاش التجربة معنا وذاق ما كنا فيه •• وما كان أمامنا سوى الصمود والتشبث

بكل حبة رمل بين أيدينا وملك يميننا •• انه الوطن الذى نعرفه حق المعرفـة ، ولم نكن نعلق كثيرا على ما يحـدث هنـاك فى الكيلو ١٠١ من مباحثات حتى ولو كانت تلك المباحثات تتعلق بوجودنا وبموقفنا من أى وجهـة نظر كانت • لقد كنـا نصنع السلام لأنفسنا وعلى طريقتنا الخاصة ومازال السـلاح تحت أيدينا ونعرف كيف نستعمله ومتى نستعمله لو لزم الأمر •• وكان الشـعر ضرورة •• وآه لو كنت أعرف لمـاذا ؟ ذلك ما قاله يوما « جان كوكتو » وفى أغلب الظن لم يتعرض هـذا الرجل لتجربة الحرب بالصورة التى تتعرض لها نحن •• ولم يعاين ذلك المد الوجدانى الذى يحدث بين الناس فى مثل هـذه المساحة الطاهرة من الأرض الغالية والا لمـا حيرته المسألة وراح يسأل فى أرق لمـاذا الشعر ضرورة ؟ ! ••

سألنى العسكرى عبد المنعم عطيفى ـ وهو الذى أطلق على نفسه اسم « ولعة » واشتهر به بين الجميع ـ سألنى ان أسمعه قصيدتى الأخيرة ونحن فى الخدمة معا •• كنا نقف فوق التبة الكبيرة للحراسـة فى النوبتجية الثالثة « شنجى » وكنـا على حافة الليل الأخير •• التبة مغلفة بطبقة رقيقـة من الجليد الذى يكاد ينفذ الى أرجلنا برغم الجوارب الصـوفية والأحذية الميرى الثقيلة • والضباب يلف أجسادنا وكأنه يقضى على ما تبقى بداخلنا من دفء ! طلب منى « ولعة » أن أسمعه الشعر وهو

يفرك كفيه بعضهما بالآخر فى سرعة متلهفا ما قد يولده ذلك فى يدية من حرارة .. فعرفت ضرورة الشعر !

كان الزميل ناجى كامل قد انتهى فى المساء من بروفات مسرحية « دائرة الطباشير » التى نعتزم تقديمها فى الحفل العام الذى ستقيمه الفرقة فى نهاية مسابقات الوحدات .. كان قد أعاد صياغتها غيابيا بما يتلاءم وطبيعة الظروف الفنية التى ستتقدم من خلالها على مسرح الشهيد « عبد المحسن » الذى أقمناه من صناديق الذخيرة الفارغة وشباك التمويه الغير ضرورية ، وكل البقايا والمخلفات العسكرية التى أصبحت ذات قيمة بعد اكتشاف البعد الفنى لها .. وأصبح الفن لا غنى عنه كما أصبح ضرورة وجودية فاعلة لا بديل عنه للاشباع الروحى وسط ميدان محكوم بقوانين من نوع آخر .

وكنا فى الصباح سوف نعيد البروفات النهائية لكل العناصر الفنية التى سوف نقدمها فى ذلك الحفل ، وأعدت على « ولعة » قراءة القصيدة مرات ومرات وهو ينفخ فى يده الباردتين حتى أشرقت الشمس وراحت ترسل الينا أشعتها من جديد .

فى المساء تجمعنا عند مسرح الشهيد عبد المحسن .. ثم حضرت القيادة وعلى رأسها الفريق أحمد بدوى .. بدأ المهرجان بالأغانى والتابلوهات التعبيرية وأنغام السمسمية وألقيت القصائد والأزجال .. ثم بدأ العرض المسرحى لدائرة الطباشير ..

الكل يغنى ويرقص ويوقع بيديه ورجليه .. القلوب تهتز والمشـاعر تتوهج .. والفن سـلاح قادر وفعال .. والرمـال الصفراء تغمرها موجات كثيفـة من الحنين والشجن ، الجنود تؤدى والجنود تستقبل والكل فى مرجل الفن كما كانوا ومازالوا فى مرجل القتال ، الملامح واحدة والأفكار واحدة ..

فى أى موقع أنت الآن أيها الفن ؟ فى أى جبهة تكونين أيتها الثقافة ؟ وماذا تعنى فى هـذه اللحظة أيها الشعر ؟ ! وكيف يدرك الانسان الآن معنى كل هذا ؟ !

يا ربات الأولمب ويا آلهة الأعمدة الفرعونيـة العتيقة .. كونوا شهودا لنا وحكما وتولى يا الله هذا الوطن برحمتك .

(تذكرت مسرح الثقافة الجماهيرية وواجب قصور الثقافة ودورها الذى يجب أن يكون .. وتذكرت الامـكانات الهزيلة والطاقات الهائلة التى تنتظر المفجر الحقيقى الذى من شـأنه أن يدفع ويفجر ويقود ويوجه .. لكى يلعب الفن دوره هنـاك وتقوم الثقافة بوظيفتها فى كل البلاد) ..

كان العرض المسرحى مازال ساخنا والجميع فى وحـدة وتآلف .. والملامح العسكرية تغيم فى عينى وتطفر على المساحة الرملية الشاسعة خلف المسرح وجوه الفلاحين وأبناء الحارات

فى موجات بشرية متلاطمة •• وقريتى ـ منية شنتنا عياش ـ تقترب فأرى قواقـع البلهارسـيا وجلاليب الكتـان الزرقـاء والنخيل ••انطلقت الأكف بالتصفيق المدوى مع نزول الستار • كانت هنـاك دمعة متحجرة فى عينى فسقطت فوق حبات الرمل الدافئـة •

بدأ الجميع فى الانصراف والألحـان والكلمـات مازالت عالقة بالقلوب والمشاعر •• دافئـة وقوية •• والخيال يصـل الشرق بالغرب ويهزم كل الفواصل والمسافات والشوق يحتضن كل قرية وكل ترعة وكل جسر ورائحة الوطن تشـكل الملامح وتكتب الأسـماء •

ونكون الأسماء قريبة ..

رايتها ـ فى أول الحرب ـ غزاله
تخـوض فى دمى ..
وطلقـــة ..
تـكون ..
نخـــلة ..
وفوق ساعدى تكون مهرة
او قريـة
والرحـلة المنتظره .
(الرحـلة المنتظـره
تسد فوهة المحيط
والغرائـز
اســتراحت
ثم نـــامت
فى العـراء)
يا ايها الانسان ظللنى بكف الشمس
وانتظر القيـامة والحســاب
ولا تجــادلنى
(فما ملكت يدى ـ يوما ـ
سوى عطش الكتابة

ما ملكت يمينى
غير محراث الدموع العكره !)
تفتحى ...
يا وردة الحرب البغيضة
دثرينى بالعرق
وتكورى .. ثمرا ..
لأبناء السبيل ..
... ...
وانت ...
يا غزاله
تفر من دمى
للريح
والرثاء
تمددى .. ومهدى ..
خشونة
المغامرة
وبادرينى .. بالبكاء !
● الحرب ؟ !
(الحرب ما جاءت الينا بغتة
كالحب
او كالخوف
بل جاءت

كحـد السـيف
كالمشـاجره !)

***

ما طـوحت وطنـا
وحطت فى دمى ،
فى الحـادية عشره
لمـا سالت محمدا
القى بخوذتـه بعيدا
ثم غمغـم .. وانحنى
(كنا رفاق الجامعه)
للمت شيئا من تآلفنا .. فجاوبنى
(كالجرح جاوبنى)
وخرت بيننا لغـة مفتتة
ودغـل من كلام :
● الحـرب ؟ !
لؤلؤة مزيفـة
ونغرق فى تضاريس السلام !
ـــ هل نحن نعرف ..
● كم تساوى هذه الحرب الضروس
من الكلام ؟ !
(طيبت خـاطره ..)

تقاســمنا رغيف الخــوف
ضيعنــا
وجمعنا رغيف الشــهداء

***

وكنا خارج الزمن الذى بلغوه
كنا داخــل الوطن الذى منعوه
كنا نمتطى حلمــا .. ونشعله
وننبش فى الأزقــة .. والقرى
(حلما ونشغله ..)
وننقش فوق خد الرمل تاريخا
ونبحث فى تآلفنــا التنافر ..
ثم نبحث ... ...
... ...
يا زمــان الوصــل .. حدثنــا
عن الغــزوات .. حدثنــا
وحدثنــا عن الزمــن المهــاجر
والرجــال
الآن حدثنا عن الخلفاء والشهداء والأسرى
وطيبة .. (كم تغيب الآن « طيبة »
كم تطل الآن مملكة الذين
يتاجرون !)

● حارب عدوك فى الشتاء وفى الخريف
ـــ الأرض مملكة الجياع .. وللمتاجر حكمة
● اضرب الى أن ينفد النفط المعمم
والصهاينـة الطغــاة ..
فللمتاجر حكمة !
ســقطت
بعيــدا
طلقـــة
... ...
نامت جوارى قطعة دمويــة
ســقطت
جــوارى
طلقـــة
أخــرى !
وغطتنى سماء من شظا الوطن المبدد
والقنابل .. ما تزال
الشــمس غــابت
والقنــابل ما تــزال !
النفط يملأ اعينى ويمد راحته على صـــدرى ويضغط
(ربما ياتى المســاء كما تحب
المـــوت
اقـــرب

من عيون الأصدقاء !)
وقريتى .. تغشى الوجوه
تفتش الجثث الشهيدة
تقرأ الأسماء
تصعد فوق صدر التل
يشرق وجهها بدرا ..
رغيفا فى يد الأطفال !
والبدر موال الذين يحاربون
موال
يا موال
يا راعى .. ويا ضوء القمر
أمى ((أمينة)) غيبت فى السوق .
موال .. يا موال
ما صافحتها اذ جئت
كانت تحمل الأفراخ للتجار
موال .. يا موال
والأسعار
فى السوق .. عالية
واخوتى الصغار
يرضون بالخبز المقدد
غيبت فى السوق !
امى !

(كم تساوى حلة الأطفال
في بدء الدراسة ؟)
كم تعد .. وكم تغيب !
الآن يا موال أفتقد الملامح والدعاء
الآن أوحشني كثيرا وجهها القروى
يا موال ؟
كم موتاً بهذا الليل ؟
كم اسما ؟ وكم لغة مجمدة ؟
وكم طفلا بلا لغة ؟
.. أعد ؟ !
وكم تساوى طلقة ـ سقطت ـ
تساوى ! ؟
كم تساوى من رثاء ؟ !
وأنا امزق وحشتى
وأعد من حولى الشظايا
((مسعد)) كان صديقى
(الموت أقرب من عيون الأصدقاء)
وأنا أحب ((محمدا))
وأحب طلعته
واخشى من سحابات الرثاء !
قد كان مسعد أخضر كالزرع
في بدء القتال

لما تصافحنا .. تساقط من يدى
ورأيته فى مصنع القطن البعيد
وكان ((مسعد)) عاملا
ويحب ، مثل جميع من حولى
يحب القطن والعمال

موال .. يا موال
أفتقد الملامح
(آه .. لا تخفى عيونك فى دمى
فالخبز مختبىء بفرحتك الصغيرة ، والعيال
تقافزوا بالمنزل القروى .. !
لا تخفى عن الوجه المقدس .. صورتى
وترقبى وقتى
ونامى فى سريرى ـ الآن أعرف
كم يساوى مسعد فى الحرب .. يا أمى)
وأعرف .. ،
يا زماننا لا تسيجه الشظايا
هل أكون خريطة للشعر ؟
أم وطنا لأطفال القرى ؟
أم كسرة للجائعين ؟ !

... ...

لفة تعشش فى الخـلايا

خـــلف جـوع الوقت

والــزمن الحــزين !

ويشــير نجـم

انى ـ يومـا ـ

أطول سباطة الزمن العجوز

وامتطى سرج الخليفـه

وتــكون من خــلفى

تــكون

قــوائم

الشـــهداء .

ومازالت الرواية لم تكتب بعد ..

صحبتنى جدتى معها الى الحمام يوما ، كنت لم أتجاوز السادسة من العمر بعد ، والرجل العجوز الذى يقبع أمام الباب البنى الكبير كاد يمنعنى لولا استعطاف جدتى ـ تلك التى تاهت ملامحها منى الآن ـ وافق الرجل على دخولى بعد ما تركت جدتى فى يده شيئا نظر اليه فى تمعن ثم تركنى أدخل معها على مضض .

فى الداخل كانت الصبايا يخطرن عاريات فوق البلاط العارى ، يغلفهن بخار الحمام المتصاعد من كل مكان كأنهن حوريات ألف ليلة ! .

جلست القرفصاء أمام جدتى بعد ما خلعت عنى كل ملابسى فى حين كان الماء الساخن يتسلل بين فخذى فيحدث قشعريرة ساذجة حلوة .. استسلمت جدتى للمرأة السوداء العارية نحيلة البدن تلك التى راحت تدلك لها جسدها الضامر النحيل بكيس تلبسه فى كف يدها ، كانت جدتى مستمتعة بما تفعله تلك المرأة بينما جسدها يكاد يتفجر دما .. وأنا أنظر اليها باشفاق وخوف أن يصيبها مكروه .. هممت أن أقول للمرأة السوداء كفى عن ايذاء جدتى لكن الصبايا أحطن بى وجذبتنى احداهن فى حصنها العارى فى خفة ومرح متفجر بالشباب وهى تداعب خدى

وترتفع عقيرتها بالضحك الرنان فى جو الحمام البلدى .. كنت أتململ بين ذراعيها فى ضيق رجولى مستنكفا ما تفعله بى بينما نهرتهن جدتى فانطلقن الى الجانب الآخر وهن يتزحلقن فوق الأرضية اللامعة والبخار الملون يملأ المكان برائحة الأزمنة الطيبة .

... ...

خلف التبة الكبيرة شدت خيمة مضلعة الأجناب ومسدلة الأطراف حتى الأرض .. أهال الجنود فوق أطرافها الرمال الكثيفة ثم اقتربت العربة الفنطاس وتم توصيل المواسير منها الى داخل الخيمة فى لحظات . كان بالداخل اثنا عشر دشا موزعة على الأجناب الأربعة المكونة لاضلاع الخيمة .

بالخارج وقف طابور الجنود ، كل يلف منشفته حول خصره ويمسك فى يده قطعة من الصابون الميرى وفى اليد الأخرى بعض المهمات النظيفة . صدر الأمر بالتقدم فهرول الجميع الى داخل الخيمة فى نزق غامر لم يبق على أى انضباط عسكرى كأن لايزال صهيله ينطلق من الصول خارج الخيمة .. حالة من الطيش الصبيانى أصابت الكل فى غمرة ذلك الفرح الذى حط علينا فجأة مع قدوم هذه العربة ذات الفنطاس والمحملة بالماء الساخن بعد حوالى ثلاثة أشهر من بدء القتال . داخل الخيمة وقف أربعة وعشرون جنديا .. تحت كل دش اثنان .. وبدأو

الاستحمام بالعدد .. دقيقة واحدة للمـــاء الساخن يندفع على أجسادنا من الأدشاش ونقوم فيها بتدليك الأجساد بالصابون .. ثم انقطع المـــاء لينطلق صوت الصول من الخارج معلنا أنه سوف يزودنا بنصف دقيقة أخرى لمن فاتته الفرصة .. ويندفع المـــاء مرة أخرى ثم ينقطع .. دقيقـــة جديـــدة لازالة الصـــابون ثم دقيقتان لاعـــادة الكرة !

يا ألله ! هذا الحلم وتلك الأمنية الغالية بعد ثلاثة أشـــهر كادت فيها مياه البحيرات المـــالحة التى نستحم فيها تأكل أجسادنا وتزيد من احساسنا بالحاجة الى المـــاء العذب كل يوم .

حركة الأيدى والأجســـاد تضرب المـــاء فيتطاير رذاذا فى كل اتجاه ، الصخب يملأ الخيمة مع صوت المـــاء المندفع ورائحة الصابون والبخار الملون الذى عبأ الخيمة .. قهقهات العسكرى اسماعيل ومداعباته لا تتوقف .. ، ووجه جدتى يأتى من مكان سحيق .. ! رائحة الحمام البلدى وألوان الطيف المبهورة بأجساد الصبايا العارية .. ! حلم رائع لا أدرى كيف اختزنته الذاكرة كل هذه المدة من السنين .

ليلتها رحت فى سبات ناعم الى أقصى حد وكأن الحرب لم تكف ولا كانت لها فى الذاكرة مساحة الحلم القديم .

فى الصباح كانت الشمس باهتة .. يطردها الشرق بسرعة

الى كبد السماء فى ذلك اليوم البارد من أيام الشتاء قصيرة الأجل ، وكانت هناك رياح لاذعة كحد السيف تسفى فى وجوهنا رمال التبة العالية .. كنت حريصا على أن يظل جسدى مستنعما بفعل الأمس أطول مدة ممكنة فأحكمت رباط المعطف الكاكى حول وجهى ووضعت يدى فى الجيوب الجانبية وأنا أدير ظهرى للناحية التى تأتى منها الرياح .. فى هذه اللحظة فوجئت بالأجداث التى تضم الشهداء فى بطن التبة وهى تتعرى تدريجيا وتنكشف عنها الرمال التى تهرب الى الناحية الأخرى من التبة ! كانوا من غير قوة كتيبتنا وكنا لا نعرف عنهم أية معلومات أو بيانات تدلنا على كتائبهم وكنا نخمن أنهم من ضمن شهداء الموجة الأولى للعبور ، تلك التى امتصت عنا رد الفعل الفورى للعدو ولم يكن لديهم الوقت لتسجيل مثل تلك البيانات التى نبحث عنها .. ، كان هذا الفعل المعاكس من الرياح يستلزم منا بين الحين والحين احاطة تلك الأجساد الطاهرة بالرعاية الواجبة .. وكان ذلك يذكرنا جميعا بشهداء كتيبتنا السبعة الذين راحوا فى عملية هجوم واحدة ليلة الثالث عشر من أكتوبر، كنا نتذكرهم واحدا واحدا ونظل طوال الليل نحكى عنهم ونستعيد ذكرى الأيام والسنين . كان ما يقوله الزملاء عن الشهيد اسماعيل كمون ، ابن بورسعيد ، يفوق أبلغ الكلام وأدق الوصف .. فقد ظل يضرب حتى نفدت ذخيرته فى مقدمة جماعة

استطلاع الكتيبة وحينما حـاول طلب المزيد من الذخيرة كان قضاء الله أسرع منه فسقط شهيدا وهو قابض على بندقيته التى ماتت عليها يداه فدفنت معه .. ، فهل ثمـة بلاغة لها هـذا الحضور الحى ؟ . وهل ثمـة كلام يكون فى حجم هذا الفعل النورانى العظيم ؟ ! وماذا يعنى الشعر ؟ وماذا تعنى القصيدة ؟ ألم أقل لكم اننى كنت شاعرا تخذله العبارة ومازلت حتى هذه اللحظة أضيق بالرمز .. لقد ضاعت منى التفاصيل العزيزة الغالية فى تلك الرواية التى لم تكتب بعد !

كتابــة بخط يدى فوق شــاهدة المقــاتل :
محمد خليفة ..

(محمد خليفة : من مواليد ١٩٤٨ ، فلاح ، من الحواويش، محافظة سوهاج . أتم تعليمه الابتدائى ، متزوج ، وله ولد واحد هو رجب وبنت هى سامية . خاض حرب الاستنزاف ، ودفع دمه مع شهداء الجيش الثالث فى ١٣ أكتوبر ١٩٧٣ فى سيناء) .

هى الحـــرب ..
تخطف منك رغيف الســـواقى
وتلقى الى المــاء آخر اســـم
وتفصح عن موســـم للبلاغـــة
هــــذا ...
أوان ... غريب عليـــك .
وفـــوق المعـــابر
تضيق المسافة بين الوجوه
تصـــير الخـــرائط
.. وجهـــــا
.. واســــما
وأنت . تصيب زمانا ثقيـــلا
وموتـــا ..
تحـــرش بالعمـــر

.. دهـرا .
كأنك كنت صنعت الهزيمـة !
وجاءتك فرصـتك الدمويـة
.. ليسـت تضـيع
وليست تصير الثوانى غريمـا
يخـاتل
منـك
المـدى
والمـلامح .. تهـوى
.. وتسـقط
من أفرع الذاكره ،
ويبقى الرصـاص .. سماطا
لمـا قـد تبقى
من العمـر
تسقط حكمتـه فى يديـك
يصـير الرصـاص خطى
والطـريق
يلوذ الى فوهـة البندقية !
(وانت تزف الى النـار
عشـقا
تعلمته فى حقول الطفولة
حين عشـقت القـرى

والنخيــل •)
وكنت رغيفــا ••
وصرت ••
شظية !

***

هى الحــرب ••• ،
تشعل ثوب الهزيمة فوق المعابر
وشكل الرغيف ـ الحقول ـ السواقى
وشــكل الشجر ••
جميعــا ••• تســـافر
•• وترحل
•• تعرف
تعرف أنك تعشـــق تلك الرمــال
وتعشـــق مصر
وتعشق فيها انفراط الضفيره
تصـــير أميرا ••
وســـيناء
ـ فى حضنك القروى ـ
تصـــير
أمـــيره
فتأخذ سيناء فى حضنك القروى
وتعـــدو بهـــا

في جبال الصعيد
تربها العشيرة .. كيف تدانت
وكيف تبادلتها الحلم والأمنيات
وكيف تصير النجوم شـظايا !
وطعم الرصاص – على شفتيك –
يصـير سـنابل !
سـنابل حنطـه
فتطعم كل الوجوه الفقيره .

***

هى الحـرب .. ،
خـاتم عرسـك
.. لـوح
.. وأمبـة
فجـــرب ..
– ولو مرة –
كيف تفضى عروقك
.. للنهـر
.. قلعـا
بذات السفينه
وانت تجـاوز حلمـك
شيء جـديد ..
تحس بأن المدى لقمـة للجميع !

(هنـالك ...
كان ((رجب))
يخط بكراسـة الرسم
شـكل البنـادق
ويرسـم :
طائـرة
وانفجـارا
ويفرح .. يفرح ..
حين يصـور
وجهـا كبيرا
يقول : أبى ...
فتقفز بنتك .. تدنو
من الرسـم
كيما تـراك
ويعـلو الصـياح
يصـير .. شـجارا !
وحين تكل الوجوه الصغيره
تطيب خاطرهم أمهم
ينـام ((رجب))
ينام على موعد باللقاء .
(ولا يفصح الشـوق
لا ينطق اللؤلؤ ـ الجمر ـ حد الدماء

الخيــول
القطــارات
كل البحار الخطيره !)
ينـــام ((رجب))
ينام على موعد باللقــاء
ينام ... وفى حضـــنه
تنـــام الكراريس
والأمنيات الفقيره !)
فهل .. أنت .. حقا ..
هجرت الســـواقى ؟
وطوحت آخر عشـــق لديك !
وصـــورة أمـــك .. ؟
ماذا تقول الرصاصة عنها ؟ !
(وأمك .. تقرأ نجمك ـ كل مساء ـ
تصـــلى ... وتلقـــاك ...
فى الحـــلم
تخلع عنك رداءك .. تحـــكى
وخيرا .. تقول
(رأيت محمد يركب ((مهره))
ويجرى بها وسط ((غيط)) القصب !)
وأمـــك .. تحـــكى ..
ولا يعرف الحلم معنى الكذب !

فكل البلاغات تجهل اسـمك !
وصوت المذيع يردد أشـياء شتى !
واســـمك ؟ !
ليس المذيع يردد اســمك !
...   .
وأمـك ...
تحمل جرتها .. وتغيب
تعـد القطـارات
والمركبات تمر سريعـا
وتلمح وجهـك فيها جميعـا
وليست تكذب ذاك الوجيب .
وأنت .. ؟ تســافر !
أنت .. ؟ تقـاتل
أنت ...
تغيب !!
« يا عزيز عينى
يا عزيز عينى .. »
وأمـــك ..
تحمـل جرتهـا ..
وتعـود !)
فماذا تفول الرصاصة عنها ؟ !
تفر .. بعيدا .. عن القلب ؟

تخجل من وجهها المستقر على رئيتك ؟
وتصـنع جرحـا ..
شـكل الرغيف
وشـكل السـواقى !
وتعطيـك اسـما
جديـدا !
ووشـما
جديـدا !

***

هى الحـرب ... ،
سلطانها .. خوذة فوق قبرك !
وقبرك ؟
شـاهدة
فوقها .. كتبتَ حروفـا
بخط يدى :
« محمـد ...
أنت مقـاتل
وأنت شـهيد
واشـهد ..
انـك ..
والرمـل ..
والبندقية ..
على موعد
فى بلاد الصعيد . »

المشهد الأخير ..

كانت الانفجارات تتوالى على ضفة الغرب ..

عمليات التطهير مستمرة وراء القوات الاسرائيلية المنسحبة هنـاك باتجاه « الدفرسـوار » كخطوة أولى بعد مباحثـات الكيلو (١٠١) .

قوات المهندسـين تمارس دورهـا مع قـوات الطوارىء الدولية .

كان اليـوم صحوا .. والشـمس تقترب من منتصـف السماء . اليوم آخر أيام شهر يناير ١٩٧٤ م .

كنت أحد أفراد أول دفعة من قوات « بدر » تنزل أجازة بعد فترة الحصـار .

كنا نعبر هذه المرة من ضفة الشرق الى ضفة الغرب .. العربة اللورى ذات الصندوق المغطى بالمشمع الزيتى اللون مكتظة بالوجوه العائدة ، الجميع متلفع بصمت مبهم لكن الدماء تفور بفرحة داخلية متفجرة والمشاعر مختلطة ، شىء فريد يلمع فى كل العيون .

ونحن فوق المعبر .. فى المنتصف تماما .. تذكرت يـوم

عبورنا ظهر السابع من أكتوبر ١٩٧٣ أنــا والسائق فوزى •• وتذكرت ما قمنا به من تعاويذ مع قطع النقود وميــاه القنــاة الرمادية الغريبة ! •• تذكرت قطعة النقود التى احتفظت بها فى ذلك اليوم ، أخرجتها من جيب سترتى الميرى ونظرت الى الناحية التى فوقها صــورة جمال عبد الناصر ثم قذفت بها فى ميــاه القناة •• نظر الجميع الى بدهشــة لكن أحدا لم يعلق بكلمــة واحــدة !

تذكرت فــوزى الذى ذهب ظهر الثــالث والعشرين من أكتوبر ١٩٧٣ الى « جنيفة » حيث مؤخرة كتيبتنا من أجل تنفيذ مهمــة عاجلة بدلا من سائق آخر كان مريضــا •• لكن فوزى لم يعد الينا من يومها ولا ندرى ان كانت قوات العدو داهمته فى الضفة الغربية هناك أم أنه ذهب بعيدا مع من ذهبوا ! ؟

كانت الانفجارات مازالت تتوالى خلف القوات الاسرائيلية المنسحبة ، والعربة تتهــادى فى النصف الغربى من المعبر باتجاه شاطىء القناة •

فى الطريق من الجناين حتى السويس كانت ملامح الأرض غير تلك التى ألفناها •• ومخلفات جنود العدو تملأ المواقع •• والأرض مزدحمة بنفايات مقرفــة •

بين السويس و « عويبد » كانت العربة تنهب المسافة وفى الصدر وردة غريبة ورائعة •

ركبنا القطار من محطة « عويبد » فى طريقنا الى القاهرة حيث بدأت السماء تنز رذاذا باردا فوق الجباه الساخنة المبللة بالعرق ، والابتسامات العالقة بالشفاه تفصح عن دهشة مملوءة بالسذاجة التى تصل فى بعض الأحيان الى حد البله •

القطار كانت عرباته وجراره جميعا مزدانة بالورود المضفورة فى فروع الصفصاف وبعض الأشجار الأخرى •• والسائق وجنود الشرطة العسكرية وطاقم محطة « عويبد » كانوا يقفون لتحيتنا بحرارة ومشاعر صادقة معبأة بالفرح •

عندما اقتربنا من منطقة « الهايكستب » فى مدخل القاهرة الشرقى كانت التباب الكثبانية الصفراء تسفى رمالها بفعل الرياح صانعة سناما كحد السيف فوق قمة كل منها •• ، بشكل عفوى كنت أنظر الى سفح تلك التباب كأننى أبحث عن شىء ما !

أغمضت عينى حينما انحرف القطار قليلا فسقطت أشعة الشمس على وجهى بغتة •• وكنت فى هذه اللحظة أرى التبة المجاورة لكتيبتنا •• فى ضفة الشرق •• وكانت أجداث الشهداء هناك تلح على الذاكرة وتحفر فيها أخدودا متزايدا ••



فتحت عيني على صياح العساكر الذين تهللوا لمرأى مطار القاهرة الجوى الذى يعج بحركة الطائرات صعودا وهبوطا مع مدخل المساء ، وحينما اقتربنا من العمران السكنى على مشارف القاهرة كانت زغاريد الأهالى وصيحاتهم وأيديهم التى لا تكف عن التهليل لنا من الشرفات جميعها توحى بحدث عظيم لم يكن فى حسباننا ! ولم ندرى أن هذا الاستقبال الحافل فى « كوبرى الليمون » من نصيبنا نحن جنود الجيش الثالث الذى وصلت أخبار صموده الى الشعب فخرج الينا ليس فقط من أجل الحب ولكن من أجل الحنين الذى يملأ الصدور والذى كنا نشعر به فى كل العيون التى تتفحصنا واحدا واحدا ربما تجد بين جموعنا المندفعة فى طوابير تحرسها الشرطة العسكرية ذلك الوجه الغائب الذى تنتظره .. ، فى هذا المشهد الأخير كانت تتلخص حكمة الحرب والسلام . توجهت الى محطة مصر أنا والزميل سيد الدمرداش بحثا عن قطار يقلنا الى المحلة الكبرى وكانت الأمطار تهطل بغزارة السماء تنذر بليلة شتائية وماء منهمر .

الفهـــرس

الصفحة

الصفحة

رقم الايداع ٨٨/٥٥٣٢
الترقيم الدولى ٠ ـ ١٨٨٥ ـ ٠١ ـ ٩٧٧

الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٢٠ قرشا

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب